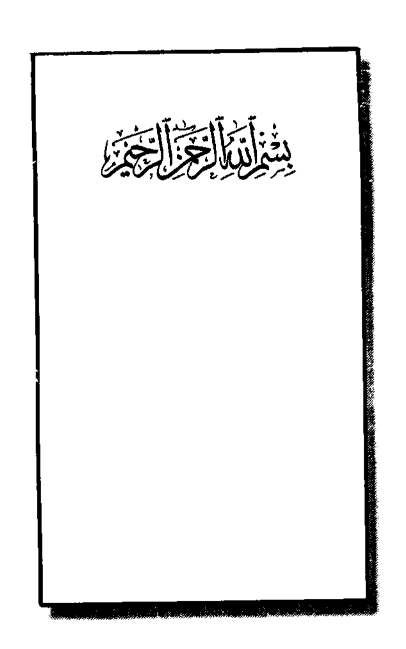


الصحة النفسية للمرأة والأم





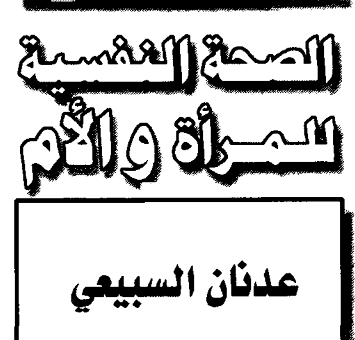


الصحة النفسية للمرأة والأم

الصحة النفسية للمرأة والأم / عدنان السبيعي . ــ
دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٨ . ــ ١٩٦ ص ؛ ١٧ سم . ــ
(الصحة النفسية للأسرة والمجتمع ؛ ٦) .
١ ــ ٣٠٥,٤ س ب ي ص ٢ ــ ١٥٥,٦ س ب ي ص
٣ ــ العنوان ٤ ــ السبيعي ٥ ــ السلسلة
مكتبة الأسد
ع ــ ١٤٥٤ / ٩ / ١٩٩٨

الصحة النفسية
للأسرة والمجتمع

٦



الرقم الاصطلاحي : ١٢١١,٠١٣
الرقم الدولي : ISBN 1- 57547-560-X
الرقم الموضوعي : ١٥٠
الموضوع : علم النفس
العنوان : الصحة النفسية للمرأة والأم
التأليف : عدنان السبيعي
الصف التصويري : دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات : ١٩٦ ص
قياس الصفحة : ١٢ × ١٧ سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب : (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً : فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

1998 الحوار حضارة و إبداع

الطبعة الأولى
1419هـ = 1998 م

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم
مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

[الروم: ٣٠/٢٠]

المحتوى

الموضوع	الصفحة

المقدمة

مهما قيل في المرأة والرجل ، ووظيفة كل منهما وأهميته في الحياة البشرية فإن الأمر الثابت الذي لا يقبل الجدل أن « المرأة تكمل حياة الرجل » وأن « الرجل يكمل حياة المرأة » وأن « أحداً منهما لا يملك أن يستغني بنفسه عن الآخر » .

إن المرأة والرجل يصنعان الحياة الإنسانية بالتعاون .

والعلاقة بينهما علاقة تكامل لا تفاضل ، أما السؤال عمن هو أفضل لسائر جوانب الحياة فهو سؤال لا يُسأل ، وإن طرحه أحد فهو قطعاً لا يملك الرؤية السليمة ، إنه ساذج أو طفل في تفكيره لم يكتسب الكفاية من النضج وحسن الدراية والنظر .

إن المرء الراجح الذهن ، لا يفاضل بين عين يبصر بها وأذن يسمع بها ؛ لأنه يعلم أن حاجته إلى الرؤية لا تقل ولا تزيد عن

حاجته إلى السمع ، كما لا تفضلها في القيمة والاعتبار ، ويعلم أن لكل من الرؤية والسمع وظيفة ذاتية لا تغني إحداهما عن الأخرى .

وما دام كل من المرأة والرجل يتابع وسيتابع مهام الحياة الواحدة ، فإن أفضل ما يصنعانه هو :

أن يدركا وجوه تكاملها .

ويرتبا أعمالها بمزيد من الرؤية والأناة والتنسيق .

ـ وليس من شك في أن معرفة الحياة النفسية للمرأة بإزاء الرجل ودراسة الخصائص التي تنهض عليها شخصيتها ، يعد أفضل بداية تستهدف بناء حياة طيبة يتوثق فيها التفاهم وتتضح معها وجوه التعاون ، وتنحسم فيها أسباب الخلاف وسوء التفاهم .

إن المرأة والرجل وجهان لحقيقة واحدة كوجهي القمر أو وجهي العملة الواحدة .

وذلك على الرغم من أن لكل منهما شكله الخاص ، وبناءه الذاتي ، ووظيفته التي تحتاج إلى الوظيفة الأخرى أو الثانية .

فكلاهما إنسان ، وكلاهما خلقه الخالق العليم من نفس واحدة ، الواحد مع الآخر ومن أجل الآخر .

وقد اعتاد الكثيرون في أيامنا أن يدوروا حول هذه النقطة ، ويتابعوا الدوران حولها حريصين على إثبات أهمية المرأة وتميزها ، أو تخلفها عن الرجل ، فكل هذا (فيما نرى) يؤلف قضية كاذبة (Pseudo Problemé) ، لأن الاختلاف بين امرأة وامرأة أو بين رجل ورجل أكبر من الاختلاف بين كل الرجال إزاء جميع النساء ولا يمنع هذا على الرغم من يقيننا بالمساواة الاعتبارية بينهما أن نستعين بعلم النفس العام من أجل رسم صورة بيّنة وواضحة تشرح الخطوط الرئيسية للأنوثة والرجولة .

ولما كان كتابنا لا يتدخل في أمر الرجولة فسنقصر بحثنا على أمر الأنوثة . واعدين أن نشير إلى بعض النواحي التي تخص الرجل في علاقته بالمرأة كلما لزم الأمر .

ومن أجل المضي في موضوعنا سنلجأ إلى تمهيد يتناول الصور التاريخية للمرأة لدى مختلف الشعوب .

المرأة في التاريخ

يتحدث تاريخ الشعوب عن المرأة بأحاديث متباينة ومتباعدة .

● فمنهم من ينظر إليها كما لو كانت صنفاً من كائن غريب فيتحدث عنها حديثه عن العنقاء وما شابهها من الكائنات السحرية .

● بعضهم ينكر أهميتها ويَسِمها بالعدوان وكأنها من الزبانية وأولي اللعنة .

● وبعضهم يرفع من شأنها ويرى أنها من الملائكة أو ما يشبه الملائكة .

ونسوا جميعاً أن هذا الإنسان الرقيق ، إنما يعيش في الأمكنة والظروف التي يسكنها الرجال يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون ويتحمل طويلاً ، وما يزال يتحمل من أجل أن تتم إرادة الله (فيكون على الأرض بشر) ، ويفسح

للنسوة كل التسهيلات في حمل الأجنة وتحمل آلام الوضع والسهر على المواليد كي تنمو وتكبر لتقدم فتياناً من بعد الطفولة ، ورجالاً ونساءً من بعد المراهقة ، فهي التي تسهر وتقلق إذا أصاب أحد أولادها مكروه ، أو ألمَّ به ما ينغص حياته ، لقد نسوا كل هذا ومئات الأشياء التي لا تستقيم الحياة من دونها . نسوا الأم الوالدة والزوجة الصبور ، والبنت الأنيسة والأخت الوديعة . وذكروا الرجل القوي الذي يأمر وينهى ، ويظلم ، ويعتو ، ويهدد ، يتزوج النساء وقد يمضي إلى بعيد تاركاً خلفه ما خلَّفه ... حقاً إن في البشر أموراً غريبة وعجيبة ، إنهم على الرغم من حبهم ما يحبون ، وأنسهم بما يأنسون ولهفتهم على التعلق بالأشياء الجميلة القوية إلخ ... إلا أنهم يهتمون على الدوام ويذكرون ولا ينسون من يخيف ويرعب ويظلم ... ويهدد ... إلخ .

ولهذا ساد الرجل في التاريخ زماناً طويلاً إلى أن تمت مشيئة الله فكان على الأرض رسل وأنبياء ومرشدون ومبشرون ،

بعثهم الخالق الجميل هداة إلى الناس ، فأنقذوهم من النظر السقيم ، والخوف المقيم وعلموهم ما أمر به الله .

فالله أكبر تعني أنه أكبر من كل ما على السموات والأرض ... وأكبر من الغابات المخيفة وكائناتها وأكبر من رجال الغابة المرعبين ومن كل سوء يخلفه رجال الغابة ...

والحمد لله... تعني أن حول الإنسان ما يُسمى بالنِعم الفائقة ، والآيات الحلوة الرائعة ؛ وأن أجمل ما خلقه الله وبثّه في الإنسان **عواطف** هي أكبر من كل العواطف ، **وأفراحٌ** هي أوسع وأبعد من كل ما يبعث على الخوف والقلق ، وبديلاً عن المشاعر المضطربة والمنهوبة ... أبدع الله السكينة وما أجمل السكينة[1] جعل الخالق منها الجو العبق بالمحبة وبث فيها العبير المفعم بالمودة والرحمة ..

☆ ☆ ☆

(١) ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [الروم : ٢١/٣٠] .

أجل ومن هذه السكينة وما حفلت به من المودة والرحمة تحياها مع الرجل صارت الأنثى أماً أنيسة تحمل ثم تحمي أبناء البشر ، وتقدمهم للحياة ، فتكون الجنة بيتاً لها على الأرض ، وتصنع زينته وتوشيه ، ثم تكون الجنة تحت أقدامها بين يدي الله في السماء .. وإذا بها الزوجة الصبورة أميرة البيت ، فيكون منها بعد ذلك ومن معاناتها صبيان وبنات تروضهم وتشاركهم أفراحهم وتقدمهم للحياة زهوراً وثمرات ، ويكون منها الأنس الجدير بحياة الإنسان واللطف والظرف وكل ما يجمّل الحياة ، وقد يكون مع الزهور أشواك ويكون من الأشواك بعض الألم والذعر .

لكن الزهور تبقى أبهى ... وأبهج ... ما يملأ سطح الأرض ... هذا فعل الأم فأروني ماذا يفعل غيرها ؟؟..

وقائع :

وقبل أن تُعرف السكينة والمودة نظاماً مقدساً على الأرض كانت المرأة تنتقل من شقاء إلى شقاء ومن تعاسة إلى تعاسة ،

وكانت تُحاط على الدوام بالامتهان والاحتقار وذلك على الرغم من أنها كانت تابعة للرجل وخادمة لطعامه وشرابه وسكناه وأفراحه وأتراحه .

لكن هذا الامتهان لم يكن واحداً بل كانت ظروف المرأة التعيسة تتكون وتتحول بين الأمم ومن فترة إلى أخرى ، على النحو الآتي :

أولاً : كانت المرأة في حضارة الهند شيئاً أدنى من سقط المتاع ، لها الحق في أن تعيش ما دامت إرادة الرجل تسمح لها بالعيش ، لكن الأمة تُجمع على أن تموت إذا مات عائلها وتُدفن معه ـ وهي حية ـ في قبره . جاء في شرائع الهندوس : « ليس الصبر المقدر والريح والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار أسوأ من المرأة » .

ثانياً : وأخذ الجحيم الذي يحيط بالمرأة شكلاً آخر في **بلاد اليونان** ، فكانت الآلهة ـ شأنها كشأن الناس ـ تخطفها وتعشقها وتتقاتل من أجلها ثم تجعلها أداة الغواية تغوي الرجل ثم أداة

للانتقام منه . ويتجلى هذا الوضع المهين في أساطير الإغريق ، ونقرؤها في أسطورة (بروميثيوس) ذاتها . تقول هذه الأسطورة : إن (زوس) كبير الآلهة كان قد كلف (بروميثيوس) أن يصنع البشر من الطين فاستجاب لهذا التكليف ، وصنع الكثيرين فوجدهم جميعاً يتميزون بالضعف وقلة الحيلة والعجز ، أثار هذا الضعف حفيظة (بروميثيوس) وشفقته : وكان يعلم أن هناك قوة خفية لها شأنها عند الآلهة تتعاطاها وحدها ، ولا تسمح لكائن أن يعرفها أو يستخدمها ، ألا وهي النار (التي ترمز إلى المعرفة) أساس كل قوة وطاقة ، وانتظر (بروميثيوس) نوم الآلهة واستغل رقادها فاستلب النار خلسة والآلهة راقدة ثم قدمها لرجال البشر ، فتحول بها ضعفهم إلى قوة ، وانتعشت قدراتهم أيما انتعاش لكن الأمر لم يتم بهذه البساطة ، بل أخذت الأمور شكلاً جديداً عظيم الخطر .... يستيقظ (زوس) كبير الآلهة ويعلم بما جرى ، فيغضب غضباً شديداً ثم يرسل (باندورا Pandora) أول امرأة لتكيد ، وتصنع القلق في حياة الرجال جزاءً وفاقاً ، وأرسل معها

صندوقاً امتلأ بالعجائب والشرور والغوايات ، ولما فتحت الصندوق انثالت منه كل الآثام والإغراءات في الأرض ، فاستلب عقل (بروميثيوس) ومن معه من الرجال ، وأخذ الجميع وتولهوا بالصندوق وصاحبته ، وأغرموا بالمرأة ، ووقعوا أسارى فتنتها ، وخرّوا سجّداً لغرامها ، لكن المرأة حين رأت وشاهدت كل ذلك ، مضت في غدرها وأوقعت (ايبيثيوس) شقيق (بروميثيوس) في شباكها فأحبته ثم تزوجت منه !!.

مغزى الأسطورة :

أ ـ كانت الوظيفة الرئيسية للمرأة أن تغوي بمفاتنها الرجال وتستهويهم وهي ليست من جنسهم .

ب ـ وحالما تنجح في مهمتها وترى الرجال يقعون أسارى حبها تفر وتتوارى لتعشق غيرهم وتصيبهم باللوعة .

جـ ـ كانت الآلهة تأبى للبشر أن يعرفوا شيئاً ؛ لأن المعرفة إنما كانت هي النار والنار من شأن الآلهة وحدها .

د ـ ولما سُلبت منها النار انتقمت لما سلب منها واستخدمت المرأة أداة لانتقامها .

ثالثاً ـ المرأة في بلاد الرومان :

تراجع شأن المعرفة عند الرومان ، فتحول الفكر إلى العمل . وهكذا كانت حضارة روما حضارة فاعلية وحركة ، وكان العبيد هم الذين يتولّون شؤون الأفعال والأنشطة ومشاقها ، فانقسم الناس هناك بين (سادة) رومانيين و (عبيد) وهم الأكثرية الغريبة عن روما ، السادة يتنعمون ولهم كل الحقوق ، والعبيد يخدمون من غير حقوق . وكان العبيد مع النساء يتعاملون جنباً إلى جنب ، لتتحقق أهداف (روما) التي لخصوها بأنها : « خبز وألعاب » أو « غذاء ونساء » ، أما النساء فدورهن معروف في صناعة المتع . وأما الغذاء فقد اتخذ صورة أخرى تخالف ما هو مألوف عند الأمم ، لقد كان سكان روما يلتهمون الطعام من أجل « لذة الأكل » ولهذا فإنهم حينما يحسون بالشبع يمضون إلى أمكنة خاصة ليتقيؤوا ، فيجوعوا عما قريب !!.

رابعاً ـ المرأة العربية قبل الإسلام : كان المجتمع الجاهلي مجتمع عشائر وقبائل ، وكان النسب أهم ما يربط الفرد بمجتمعه ،

لقد أقنعت الصحراء العرب ؛ أن من العبث أن يعملوا في بيئة تتسم بالجفاف الكلي فكانوا دوماً ينتجعون مواطن الماء والكلأ ، وكانوا دوماً في حالة استنفار وتنقل وحروب محلية وهجرات داخلية . فتغدو الفروسية وظيفتهم الأساسية وحين تكون الفروسية الوظيفة الأولى في الجماعة يعظم شأن الفرسان وتأتي المرأة في الدرجة الثانية . ويتراجع قدرها ، فيسلك الناس مسلك من يخشى ويتوجس حين تلد الأنثى . فيظهر الوأد بينهم خشية الفقر تارة والعار تارة أخرى .

كان الأعراب يطوفون بالبيت الحرام عراة (نساءً ورجالاً) كما خلقهم الله ، وكانوا يتعاملون مع المرأة تعاملاً غريباً فكانوا يواقعون المرأة جماعةً !.. ، فإذا حملت ثم ولدت مضوا إلى العرّاف ليبين لهم من هو أبُو الولد . ولما ظهر الإسلام ألغى واستبعد كل هذه القبائح واستبدل بها المكانة اللائقة ، ولأول مرة في تاريخ البشرية انتشر بين الناس أن : « النساء شقائق الرجال » .

خامساً ـ المرأة في النصرانية : جاء في الطبعة الخامسة عشرة من موسوعة العلوم الاجتماعية[1] :

« إن آباء الكنيسة المسيحية الأولى هالهم ما رأوه من تهتك المرأة الرومانية وتفسخها ، فأنكروا واستنكروا ما يتعلق بالمرأة في مجتمع روما واندفعوا يبشرون بالتقشف ، ومحاربة الفساد ، وكل اللذات ، واعتبروا أن الاتصال بين المرأة والرجل (كيفما كان) عمل مهين ، وأن الزواج حالة استثنائية تكون الرهبانية أفضل منها ، وانتهوا إلى أن المرأة هي وعاء الخطيئة على حد تعبير (ترتليان) فهي الباب الذي يؤدي إلى (الشيطان) .

وجاء في دائرة المعارف البريطانية[2] : « إن روح المرأة تختلف عن روح الرجل ، وهي التي كانت السبب في خروج آدم من الجنة ، ولهذا فإن عليها أن تنكفئ على نفسها وتخجل من جمالها » .

---

(١) المقدمة صفحة ١٤ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية ١٥/١٣٠ .

سادساً ـ المرأة في الإسلام :

تمهيد : كان النبي محمد ﷺ واحداً من الرسل مثل إبراهيم وموسى وعيسى ، ولكنه كان خاتم الأنبياء والمرسلين ، كان كل رسول من الأنبياء السابقين قد بعثه الله إلى قومه ليُصلح من شأنهم ، وينشلهم من أخطاء وتورطات وقعوا فيها ، وهكذا جاء موسى إنقاذاً لبني إسرائيل من جور الفراعنة وظلمهم ، وأتى عيسى ليخفف من تشدد اليهود وغلوائهم . أما محمد ﷺ فقد أرسله الله إلى جميع البشر ليكون للعالمين نذيراً وبشيراً .

كانت رسالة الإسلام تعترف رسمياً واسمياً برسائل موسى وعيسى واعتبرتها نبيين مخلصين ، حملا رسالة التوحيد استمراراً لنبوة إبراهيم (توحيد الإله والبشر) .

واعتبر اليهود والنصارى أهل الكتاب ودعاهم إلى العودة لأصول دياناتهم والاعتراف برسالة الإسلام التي لا تتناقض مع أصول الديانتين السابقتين بل تؤيدها وهذا ما يبرر عالمية الإسلام . فالروح واحدة في الديانات السماوية الثلاث ، وإن كانت الشرائع وأصول التعامل مختلفة .

وهكذا أتى محمد ﷺ مصدقاً (لما بين يديه) من التوراة والإنجيل .

وكان المجتمع البشري أوان بعثة النبي ﷺ قد امتلأ ظلماً وجوراً سادت فيه الفاحشة وانطفأت أنوار الإيمان والعقل . فكان أول ما فعله الإسلام في المجتمع البشري أن أخذ ينقيه ويصفيه من الشرك والزيغ عن الله ، ومن استعباد الإنسان للإنسان . وعلى حد تعبير (جعفر بن أبي طالب) الصحابي : فإننا انتقلنا بالإسلام من عبادة الإنسان إلى عبادة الرحمن .

وما هو هام وجوهري أن النبي محمداً ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى ولم يأت بكلمة واحدة[1] من عنده . جاء في القرآن

---

(١) ولنتأمل جيداً في هذه الآيات القادمة حيث نجد فيها الإرشاد والتنبيه الصريح للنبي ﷺ والزجر بل التهديد والوعيد . يقول الله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [الشورى : ٥٢/٤٢] ، والذي يقرأ سورة (عبس وتولى) يجد فيها زجراً صريحاً للنبي ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكرة ... قُتل الإنسان ما أكفره ... وجوهٌ يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها=

قوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾[1] [الحاقة : ٦٩/٤٤ ـ ٤٦] .

☆ ☆ ☆

وأقبل النبي يحمل معه رسالة السلام والإسلام ، ومن حوله قبائل وعشائر متناحرة ومتنازعة وأُمّية وفقيرة فحوّلها إلى جماعة سياسية ومنظمة ، جعل منها أمة عظيمة ودولة غنية قدمت للبشرية ماقدمته من معاني وقيم وما تزال تحمل الآمال إلى البشرية التائهة والأمم المسحوقة .

وكان من أول معطيات الإسلام ماقدمه للأسرة ، فأنقذها من الانهيار والعار وأصلح من شأن المرأة فجعلها سيدة ذات

= غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ ونتساءل هنا هل يُعقل أن يزجر محمد نفسه ويعيب عليها ويتوعد ذاته ويُعلنها في الكتاب الذي بثه ونشره بين الناس يوضحها بصراحة أن النبي مؤاخذ في بعض المواقف ؟.. هل سمعنا عن إنسان يبلغ به القول إلى حد أن يعيب نفسه ويؤاخذ ذاته في أقواله وكتاباته . إن هذه الآيات وآيات كثيرة أخرى تؤكد أن القرآن الكريم من قول الله وقد أوحى به الله لنبيه فبلغه .

(١) الوتين : هو العرق الذي يربط الجسم بالرأس .

كيان معنوي وأدبي وأماً ومربية ، تدرك واجباتها وتعرف مهمتها وتمارس سلطانها ، وأسبغ عليها القَدْر والقيمة ونشلها من أوضاعها الزرية المهينة . فقام بما يأتي :

١ ـ أزال عن المرأة اللعنة التي كانت تتلبسها والأغلال التي تقيدها ، وجعل منها إنسانة مكرمة ودودة رحيمة ، ويمكنها أن تبلغ أسمى الدرجات بتقواها وأعمالها وقد تتخطى الرجال .

٢ ـ أنقذها من تهمة إغواء الرجل وإخراج آدم من الجنة حيث أوضح القرآن أن آدم وزوجه حواء قد اشتركا في العصيان حين استجابا لنداء الشيطان ووسوسته ، ولكنهما تابا بعد ذلك وتقبل الله توبتهما .

٣ ـ وألغى الإسلام بالتالي معنى الخطيئة التي قيل : إنها تلازم البشر ، بسبب خطيئة آدم وغواية حواء ، فأبان أن هذا باطل في باطل ، فالله تعالى قَبِل توبة آدم وحواء ، والله تعالى أفادنا بصريح العبارة ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [فاطر : ١٨/٣٥] بمعنى أن خطأ واحد من البشر لا يستلزم انتقال وزره إلى

الآخرين . وهكذا فأبناء آدم ذكوره وإناثه يولدون على الفطرة ، والفطرة نقية طاهرة ، ولا تفضيل للذكر فيها على الأنثى في الاعتبار .

٤ ـ وخلافاً لما كان سائداً قبل الإسلام بالادعاء أن لذّات الجنس خطيئة ، أفصح الإسلام أن الخطيئة هي أن يخطئ الإنسان فيكذب ويغوي ويغتصب أو يزني .

٥ ـ اعتبر الأنثى والذكر مخلوقين من نفس واحدة . فلا فضل لأحد على أحد ، ولا لذكر على أنثى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

٦ ـ وأكد أن الوظيفة الرئيسية للأنثى ماثلة في الزواج قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾ [الروم : ٣٠/٢١] .

٧ ـ وجعل هدف الزواج استمرار النسل والسكينة بين الزوجين ، ومن السكينة تكون المودة والرحمة .

٨ ـ وبينما كانت المرأة لا تملك شيئاً ولا مالاً تتصرف به ،

ولا تتمتع بشخصية مالية واقتصادية مستقلة في جميع أنحاء العالم ، أقام الإسلام للمرأة كياناً راسخاً لا يجوز العبث به وأعطاها الأهلية المالية الكاملة ، فتتاجر ، وتمتلك ، وتستثمر أموالها بشكل مستقل ولا دخل لأحد بها .

٩ ـ وكان زواجها في الأمم يجعلها تفقد أموالها واسمها فيمتلكه الزوج منذ أن يعقد قرانها عليه ، فألغى الإسلام هذا النظام ، واعتبره ظالماً وجائراً ، فلم يعد الرجل وصياً على المرأة ولم يكلفها أن تمنح (إلا برضاها) ما تحتاج إليه أسرتها ، مهما كانت أموالها وملكيتها . ولم يعد وجودها يحتمل الظلم ولا الوأد وهي حية ولا العدوان .

في نفسية المرأة

من الثابت المؤكد والمسلَّم به في علم النفس أن السلوك النفسي لا يعمل في فراغ ، بل يرتبط في ناحية أو أكثر بالبنية العضوية ووظائفها ، كما يرتبط بالعلاقات الاجتماعية التي تحيط بالفرد . وسنؤجل إلى ما بعدَ معالجةَ النواحي الاجتماعية بمشيئة الله .

من البنية العضوية للمرأة إلى توازنها الوظائفي :

يرى العلماء المتخصصون أن تركيب جسم المرأة أوثق من تركيب جسم الرجل وأكثر تماسكاً ، فهذا ما أكدته الملاحظات وكشفت عنه التجارب الحياتية لها .

ومنذ الولادةفإن جسم البنت يمتاز بوحدة البناء ، وقوة الترابط بين أجزائه ، كما يتميز بدرجة عالية من الانسجام . ولعل هذا يفسر لنا لماذا تكون وفيات البنات المولودة أقل من وفيات

الأطفال الذكور ، وتصدق قوة الترابط البنيوي على المظهر الخارجي ، وعلى البنية الداخلية .

فمن ناحية المظهر الخارجي : نجد أن كل جزء من أجزاء جسم المرأة ينساب ويتناغم مع كامل الأجزاء . فالصورة الكلية الشائعة لجسمها تسيطر على الأجزاء التي تتألف منها ، وهكذا منحها الله تعالى الجمال والجاذبية . انظر إلى كتف الرجل أو عضلة ساعده أو ساقه ، تجد أن كل واحد من هذه الأطراف ينهض بذاته من حيث الشكل ، وهكذا فإنك تستطيع أن تتبين بوضوح ومن غير عناء الأجزاء الظاهرة من جسم الرجل فترى كل جزء يستقل بنفسه ، أما إذا نظرت إلى كتف المرأة أو ساعدها ، فإنك تشعر أن هذا الكتف لا ينهض بذاته ويكاد لا يكون له مظهر مستقل . إنه ينساب ـ كما تنساب جميع الأعضاء الأخرى ، ليتصل ببقية أجزاء جسمها . وهكذا يمتاز جسم المرأة باندماج الأجزاء فيغدو (بحكمة إلهية رائعة) أقرب إلى اللحن الموسيقي منه إلى شيء جامد يقبل التجزئة[1] .

---

(١) وهكذا يصدق القول الذي يقول : « لقد خُلقت الأنثى لتضمن النسل=

ومن ناحية البنية الداخلية : نجد أن بنية الجسم عند البنت أوثق من بنيته عند الصبي ـ خلافاً لما يظن ـ ولهذا قلنا : إن نسب وفيات الصبيان تزيد على نسب وفيات البنات . وتؤكد هذه الناحية ملاحظة أخرى ، وهي أن نسب حالات التعرض للأمراض تزيد وترجح عند الذكور . الأمر الذي يؤكد متانة جسم الأنثى وقوة مقاومته للأمراض[1] .

ومن النواحي الوظائفية (الفسيولوجية) :

يحقق الرجل استقراره بتوازن أقرب إلى السكون إذا قيس إلى توازن المرأة ، أما توازن الرجل فهو مستقر استقرار الزهرية على الطاولة ، في حين أن توازن المرأة كتوازن الطائرة المتحركة إنه استقرار ديناميكي متحول . وتنشب في وجه توازنها معوقات كثيرة لا نشهد نظيرها عند توازنه هو .

= بالجاذبية وخلق الذكر ليضمن النسل بالنشاط فهذا موطن جماله وتقديره . وهذا سر جمالها » .

(١) ويعبر عن هذا بعض فيقول مازحاً : « إن علينا أن نعيد النظر لتحديد الجنس اللطيف والجنس الخشن » .

وأشد ما تظهر هذه المعوقات في سن البلوغ والنضج ويتهيأ جسمها للإخصاب والحمل وما إليهما ... ولتوضيح هذا نقول : إن البلوغ يجلب معه تغيرات تبدأ عضوية وسرعان ما تغدو نفسية ، وفي حين أن البالغ الذكر يستلم تغيرات البلوغ كاملة جملة واحدة خلال وقت محدود ، يصبح من بعدها رجلاً راشداً مكتمل الرجولة ، نجد أن نظاماً من التغيرات يلازم الفتاة طويلاً طويلاً ، فيتعرض توازنها للاضطراب خلال سنوات طويلة تمتد من البلوغ إلى سن اليأس وما بعده . فلنوضح ما نقول فنذكر ما يأتي :

١ ـ حين تبلغ الفتاة سن الرشد يخضع جسدها للدورة الشهرية التي ستدوم طوال ثلاثين عاماً من حياتها القادمة ، (تزيد أو تنقص) ، وهذه الدورة تكون بسبب البويضة .

٢ ـ لا يقتصر أثر تكوين البويضة (وما يتبعها من تغيرات فيسيولوجية) على إحداث الشعور بالتعب ، بل يمتد إلى تغير مزاج الأنثى بين فترة وأخرى خلال فترات الدورة الشهرية .

٣ ـ والمبيض هو العضو الذي يطلق كل شهر البويضة ، بعد أن تكون قد نضجت وأصبحت مهيأة للإخصاب .

٤ ـ ويفرز المبيض نوعين من الهورمونات الواحد بعد الآخر ، يُسمى الأول (الفوليكولين) ويسمى الثاني (اللوتيين) ، ولكل من هذين النوعين دوره الخاص الذي يتجاوز العضوية لكي يتدخل في مزاج الأنثى ، حتى إن بعضهم أطلق على الهورمون الأول « هورمون الحب » والثاني « هورمون الأمومة » وهكذا تمر المرأة في كل شهر بمرحلتين نفسيتين متميزتين :

مرحلة الزوجة ، ومرحلة الأم ، فينتقل مزاج المرأة من الانشراح والإقبال إلى الاكتئاب والانكماش والتوتر ، ويبدو جسدها وكأنه آلة موسيقية تتعرض للخلل وتتطلب إعادة التوازن[1] ويقع عبء إعادة هذا التوازن على الزوج الذي

(١) كان الأقدمون يجهلون دقة تركيب مزاج المرأة وصعوبات توازنها ، كانوا يرون في المرأة آراء ظالمة مفادها على الزوجة أن تحب زوجها وتفهمه أكثر فترضى غداً بما كانت تأباه بالأمس وهكذا .. (وبهذا المعنى يقول أحدهم=

تصدمه تقلبات زوجته وتحولات مزاجها ، وسنرى أن هذا يفضي إلى تنظيم الرجل بحزمه فهذه صورة أولية لقوامة الرجل .

٥ ـ هذا هو مجمل فعل الدورة الشهرية في مزاج المرأة . وهناك أفعال أخرى تشكل مجموعة من الصعوبات تتعلق بالزواج ، والحمل ، والإرضاع وحضانة الوليد وفطامه .

ويجب أن نعترف أنه يصعب على المرء أن يتحرى ويتابع كل ما يجري في نفسية المرأة بتأثير هذه التغيرات الناجمة عن الفعاليات المذكورة ، ولا سيما أن الأمور تختلف حدتها أو مرونتها من امرأة إلى أخرى . وعلى وجه العموم يمكننا أن نستفيد فائدة طيبة إذا استعرضنا الملاحظات الآتية :

ملاحظات واقعية :

● إذا تزوجت المرأة أو لم تتزوج أو تأخر زواجها ، فإنها

= على الزوج أن يحب زوجته فقط وألا يحاول أن يفهمها) . فنقول إذا صح هذا فليس لأن المرأة لاتُفهم ، بل لأن تغير توازنها يعوق استقرارها وقرارها فهي تحتاج إلى مَن يفهم .

تعاني من تغيرات فيسيولوجية تنجم عنها صعوبات نفسية ومزاجية .

● إذا حملت الزوجة أو لم تحمل أو تأخر حملها . فإنها تعاني من تغيرات فيسيولوجية مؤثرة تنجم عنها صعوبات نفسية ومزاجية .

● إذا ولدت الحامل أو تأخر وضعها أو أسقطت فإنها تعاني من تغيرات فيسيولوجية تنجم عنها صعوبات نفسية ومزاجية .

● ويلي بعد الولادة أمور كالنّفاس والإرضاع فكل هذا يجعلها في تغيرات فيسيولوجية مؤثرة تنجم عنها صعوبات نفسية ومزاجية .

● ويدور الإرضاع الطبيعي من ثديها فتعاني من تغيرات فيسيولوجية ... الخ . علماً أن في هذا الإرضاع تعقيدات نفسية تتعلق بمقدار رغبتها أو تولعها بالمولود أو تنكُّرها له ، فاللبن (وهو شيء مادي فيسيولوجي) يتعلق إدراره أو شحّه بالولع أو عدمه وبتكيفها مع الحمل ومدى تقبلها له .

وتعـاني المرأة من كل هـذه التغيرات الكثير الكثير ، وتظل قادرة على أن تتابع حيـاتهـا واهتمامهـا بنفسهـا وزوجهـا وبيتهـا ومستقبل أيامها وأيام الذين تنجبهم بنين وبنـات وتتولى شؤون الجميع فترسلهم مدداً لأسرتهم ووطنهم والإنسانية من حولهم .

من البيـولـوجيـا إلى السيكـولـوجيـا (من الجسم إلى النفس) :

وجـدنـا أن جسم المرأة أقوى من جسم الرجل وأكثر تماسكاً في البنية والوظائف ، وقد أثبتت الملاحظات والاستقصاءات أن المرأة أقدر على مقاومة البرد والحر والتعب وأقل إحساساً بـالألم . وشـاهـدنـا أن تـوازنهـا متحرك دينـاميكي يتعرض دومـاً إلى الصعوبات والمعوقـات ، وأنهـا مـا تكاد تحقق شيئـاً من الاستقرار المـؤقت إلا وتتعرض إلى تغيرات جـديـدة كل شهر قمري تتنـاول بناءهـا العضوي والنفسي والاجتماعي سعيـاً وراء استمرار التكيف من جديـد . وأن تغلب المرأة على صعوبـات حيـاتهـا وتعرضهـا المستمر للمعـوقـات واستعـدادهـا لـمواجهـة المفـاجـآت ، كل هـذا

لا يذهب هباء بغير ثمن ، وإنما هو يعود على المرأة بالفوائد الجمة . فهو يجعل نفسيتها تتميز :

بالخصوبة والغنى ، والمرونة وقابلية التحول ، والسعة والامتداد ، والتعب والإنهاك .

وإذا تهيأت هذه الأمور تولد منها مستوى من الطموح مع قدرات فائقة تجعل نفسية المرأة تتسم بصفات رئيسية أهمها :

١ ـ طلب الكمال :

تستهدف المرأة عموماً مثلاً أعلى يفوق في إصراره وفي سموه المطلق المثل الأعلى عند الرجل وإنها تتطلع أكثر من الرجل إلى المطلق ولهذا كان طريق الأنوثة أشد وعورة من طريق الرجل .

٢ ـ الاستعداد للتضحية :

إزاء الصعوبات الكثيرة التي تتعرض لها المرأة ، تلجأ بجسارة إلى التضحيات الكبيرة وتتخذ شعاراً لها : « الكل أو لا شيء » ، وهكذا تتعرف على عالم البطولات ، ويسهل عليها

إنكار ذاتها فتكون في أوائل الشهداء ، وتكون شراً على الأعداء بل ناراً متأججة[١] .

وإن هذا الذي ذكرناه حول نفسية المرأة ليس من نسج الخيال أو من وحي الشعراء بل هو حقيقة واقعة كشفتها الدراسات التحليلية في علم النفس منذ أوائل هذا القرن ، فأتت مؤيدة لشهادة التاريخ ووحي الشعراء .

٣ ـ تجسيد الأفكار :

يقبل الرجال على البطولة كما تقبل النساء عليها ، ولكن الرجل يظل في جانب ، وتبقى بطولته في جانب آخر أما المرأة فإنها تصبح هي وبطولتها شيئاً واحداً ، وبتعبير أوضح نقول إن المرأة تذوب في الفكرة ، وهي تمنح فكرتها كل وجودها ، إنها لا تحيا مع الأفكار والأشياء ، وإنما تحيا تلك الأفكار والأشياء ، وهذا ما يسبب لها مزيداً من التعب يعيش الرجل في نجوة منه .

(١) كما كانت أم ياسر بن عمار أول شهيد من شهداء الإسلام رضي الله عنها . وإذا راجعنا التاريخ الحديث علمنا أن النازيين لاقوا من نساء فرنسا في الحرب العالمية الثانية مقاومة ضارية يحسدهن عليها أشد الرجال .

٤ ـ حدس المرأة :

والحدس كما نعلم معرفة مباشرة تصل بين العارف والمعروف دون واسطة . ويُصنف الحدس عادة في صنف يقابل الاستدلال . يقال : « إن البشر يكتشفون مكتشفاتهم بالحدس ويبرهنون عليها بالاستدلال » . وعلى وجه الإجمال فإن تفكير الرجل استدلالي في معظم أوضاعه وتفكير المرأة حدسي وتفكيرها الحدسي يجعلها قادرة على الاتصال بصميم الأشياء ، فتحيا عالم الحقائق[١] .

يقول هيانس في كتابه (سيكولوجية المرأة)[٢] ما أكثر ما يتفق لنا أن نشعر أمام المرأة أننا أغبياء غباء واضحاً « يكون أحدنا قد فَصَل القول في رأي له طريق عريض استقبله الرجال إما بتقدير يستحقه وإما بنقد متوقع يسهل الرد عليه ، فإذا بامرأة في وسط الحضور تتدخل في الكلام ، فتبدي ملاحظة

(١) علم النفس الجنسي . أوزفالد شفارتس . تعريب بركات . المكتبة العصرية ١٤ .

(٢) سيكولوجية المرأة . هيانس . ترجمة سامي الدروبي راجع المقدمة .

صغيرة لا تخطر على البال . فإذا بها تضطرنا إلى أن نهدم كل ما بنيناه ونعيد النظر إلى رأينا في الأمر من أوله إلى آخره » . يستفاد من هذا أن الحدس السريع الذي يتسم به تفكير المرأة يعد مكملاً للاستدلال البطيء الذي يتم خطوة خطوة عند الرجال . وهاكم بعض الوقائع المماثلة :

● يكون أحد الناس في حديث مع امرأة يعرفها معرفة بسيطة ، ويتناقش الاثنان في قضية دقيقة فيشعر أنه مرتبك ، يبحث عن الألفاظ المناسبة فيجدها بصعوبة وينقطع عن الكلام ويُحرج في حين أنها تتكلم ببساطة وتنطلق على سجيتها لا تبحث عن الكلام ولا تقول مع ذلك كلمة واحدة لا ينبغي قولها .

● ويكون أحدنا قد أضاع كتاباً أو قلماً ثم يبحث عنه نصف ساعة دون أن يعثر عليه. فينادي امرأته لمعونته ، والمرأة لا تكاد تعرف شكل الكتاب أو صورة القلم ، فإذا هي تجده بعد دقائق . وقد يفسر هذا بانتباهها التفصيلي والتجزيئي الذي يساعدها على ملاحظة مكان الأشياء مع الأشياء في آنٍ واحد .

● يختلف رأي أحدنا عن رأي امرأة أخرى حول شخص يعرفه كلاهما ، ويدلي الرجل بأدلته ولا تدلي المرأة بشيء كثير ، ثم تشير التجربة في الغالب إلى أن المرأة هي التي كانت على صواب ، والنساء تفخر بأمثال هذه الأنواع من الانتصارات ، وهن على حق ولا يعتبرنها مزايا فردية بل مزايا يتمتع بها جميع أفراد جنسهن ، ويهزأن من أولئك الأغبياء الذين لا يستطيعون أن يدركوا شيئاً لم يستخرجوه من استدلالات طويلة عريضة .

قالت امرأة : « إنهم لا يخبروننا بشيء ، ولكننا نحزر حزراً » .

إن من الحزر واللقانة الذي يتعارض مع فن الاستدلال هو بذاته ما عنيناه من التكامل ، بين تفكير المرأة وتفكير الرجل ، وهو الذي يُظهر تفوق المرأة بشكل واضح في إصابة الحقيقة الجزئية إصابة لماحة وضيئة ، تاركة للرجل تفوقه في إدراك الحقيقة ككل .

من السيكولوجيا إلى السوسيولوجيا (من علم النفس إلى علم الاجتماع) :

١ ـ تجاوز الذات :

لا تتعاطف المرأة مع ألم إنسان آخر ، وإنما تحيا ذلك الألم ، وتظهر هذه الناحية بوضوح لا في نفسية المرضات فقط بل في نفسية النساء كلهن ، وحين تتعاطف معك المرأة تشعر أنها منحت قضيتك كل ما تملكه من دعم . إن هذا التجاوز يعطي المرأة شيئين متناقضين في آن واحد .

أولها : إحساس كبير بحاجتها إلى الآخرين ، ويتجلى هذا الإحساس في خشيتها من الوحدة . فالوحدة تدمرها وتجردها من أقوى أسلحتها ، وإذا ما شعرت المرأة بالوحدة ، فإنها ترى ألا طائل من حياتها وأنها غبية وفاشلة .

ثانيها : إحساس كبير بأهميتها ومكانتها عند الآخرين ويتجلى هذا في الإيحاءات الفخمة التي كانت وما تزال تقدمها للرجل . إن القول القائل : « خلف كل عظيم امرأة » يمكن فهمه وربطه بهذا الإحساس . كشفت (مارجريت

نيكولسون) الأستاذة في جامعة كولومبيا عن السبب الحقيقي الذي جعل النساء قديماً لا تصل إلى قمم العبقرية بوفرة فقالت : « ذلك لأنه ليس لهن نساء »[1] كالرجل . أي لأنهن لم يتوفر لهن كائنات تقدم لهن العون والإيحاء مثل ما توفر النسوة للرجال من عون وإيحاء . ونضيف إلى هذا قولنا : إن الرجال لا يقدمون إيحاءات إلى النسوة من حولهم ، بل يقدمون الأفكار الواضحة .

٢ ـ السخاء العاطفي :

يرى الرجل الأشخاص والأشياء والأمكنة فيتعامل معها بفكره طبقاً لخصائصها وما يطلبه هو منها ، والمرأة قد تفعل ذلك وتزيد على ذلك بأنها تغلف الأشخاص والأشياء بنظرات عاطفية خاصة ، وهكذا نجد أن إدراك المرأة ليس جامداً مجرداً من الألوان والتأثيرات بل إنه شيء زاخر يزخر بالإيحاءات (الحلوة أو القبيحة) وكل شيء من حول المرأة يستثير عندها الانجذاب أو النفور ، أي الإقبال أو الإحجام ، ولهذا قيل : **« لا طعم لحياة امرأة إلا بالنسبة لشيء (أو شخص) تحبه أو**

(١) علم النفس الجنسي شفارتس ١٤٢ .

تكرهه ، وتحسده أو تتمناه » . إن هذه الخاصة القريبة من الطفولة تجعل المرأة أقرب إلى أن تكون فنانة منها إلى كونها صانعة أشياء ، وحتى حين تصنع الأشياء تسبغ عليها الألوان الجميلة . انظر إلى ما يصنعه الطفل وما تصنعه أخته حين يكتشفان شيئاً جديداً ، فيسأل الصبي أباه أو أمه ما هذا ؟ أو ما نفعه ، أو كيف يكون ؟... أما البنت فتسأل بقولها : « يا سلام ما أحلاه أو ما أطيبه ، « أو كيف نحصل عليه ؟... » .

٣ ـ حياة الانفعالات :

الانفعال سلوك تأثري (وفي اللغة يقال انفعل فعلٌ لازم ولا يتعدى) فهو يدل على الاضطراب والتشوش وفقدان التوازن لحظة العمل . والرجل إذا انفعل سلك مسلك الطفل ، لأن الغاضب ينسى منزلته الاجتماعية وقد ينسى ما اكتسبه من حسن التلفظ أو الكتابة ويسلك سلوك من هو أصغر .

أما المرأة فإن انفعالها يتجلى في شكل خاص ، إن حسد المرأة وغيظها وحزنها ليست معطلة لقواها بل هي تستحث

همها لأمر جديد أو تعب جديد ، **ولنقل إنه انفعال فعّال .**
وهكذا تحول المرأة انفعالاتها من التأثر إلى التأثير ، وشعارها تجاه المنغصات : « ليس المهم فقط ما كان وإنما ما سيكون » ، « لا يضيرني القليل الذي أعيش عليه ما دام لي الكثير الذي أعيش من أجله » وشعارها ليكن لي الزوج الذي أريده وسيكون به كل ما أريده .

أهداف المرأة :

أهدافها في حياتها كثيرة ، كل شيء ، كل شيء تحصل عليه المنافِسات وأهم أغراضها الاجتماعية أطفالها وزوجها وبيتها ، والتي تفلح فيها ضمن نواحٍ أخرى التدريس أو التمريض فإن سر فلاحها ونجاحها ، أنها اتخذت من المكان الذي تعمل فيه ما يشبه بيتها وأولادها . قد تبدأ عملها في مكان غير منظم أو ربما غير مؤنق ، وإذا بها ترفض هذا الوضع الشاذ فتحول مكان عملها إلى مكان مرتب ونظيف وهذا ما نلاحظه في نساء الشام وبناتها بوجه خاص .

إن الأمومة تشغل بالها وهي تستغرق حياتها الشعورية واللاشعورية منذ أن يتفتح وعيها ، حتى إن ألعابها هي ألعاب أمومة (تلبيس ـ تنظيف ـ تنويم ـ أوامر ونواه توجه إلى لعبها .. الخ) .

إن كل أنثى هي أم بالقوة والزمن يجعلها أماً بالفعل ، وكل عملية لإبعاد الأمومة عن المرأة تجعلها تخرج عن صميم طبيعتها . (فيا خيبة سيمون دوبوفوار وأضرابها) وسنلم بهذه الخيبة فيما بعد بمشيئة الله وإذا شاهدنا زوجة تسيء توجيه بيتها أو لا تحترم الآخرين ، فلنعلم أنها تلقت هذه المساوئ واكتسبتها في حياتها السابقة أو كانت أمها من قبل على هذه الشاكلة .

الاستجابات الخاصة :

تستجيب المرأة لمؤثرات بسيطة أكثر وأقوى من استجابات الرجل ، فالنظرة قد تكفيها ، والمزحة البسيطة قد تشعل غيظها ، فلا تنساها . يقول ديدرو : « رأيت الحب والغيرة والبغضاء والأوهام تصل عند النساء إلى درجة لا يشعر بها

الرجال إطلاقاً »[1] . ويقول فنولون : « كل امرأة مستعدة لأن تتحيز لشخص أو شيء أو ضدهما ، حتى ولو لم تصرح بذلك » .

والفتور والتراخي والإهمال قد يقتلها ، والانتظار الطويل يقلقها ، حتى إنها تقبل بالخيبة وتستسلم للإخفاق ولا ترضى بالانتظار الطويل .

بعض الاستجابات الخاصة :

● إن النساء اللواتي يَظهرن ـ في الظاهر ـ أقل تأثراً ، فهن يملكن شفقة أكبر (من شفقة الرجل) على مسكين أو طفل جريح أو هرٍ كسرت رجله ، ومع هذا فإن النسوة نفسها تذهب جماعات وتتنادى لمشاهدة تنفيذ الإعدام بمجرم والمبارزة والقتل بالسيف ومصارعة الثيران أو متابعة الأفلام الرهيبة .

● يُلاحظ أن المرأة تخشى الآلام فتبدي جزعاً أكبر من جزع الرجل ، ومع هذا فهي تتحمل الآلام إذا وافتها أكثر مما يتحمل الرجل .

---

(١) هيانس : المصدر السابق ٥٧ .

● يقول لومبروز : إن النساء اللواتي يقلقن قلقاً شديداً قبل الولادة يتحدثن بعد الولادة عن استغرابهن الشديد كيف مرت الأمور دون كبير همّ » .

يقول أوكتاف فوييه « إنهن يتخيلن ما هو خير من الخير ويتخيلن ما هو شر من الشر »[1] .

وحين تقع الملمات والمصائب الكبيرة :

● تملك المرأة قدرات أكبر من التصور في مواجهة المصائب الضخمة ، إن المرأة التي تكاد تنفجر فلا تتحمل كلمة واحدة ، هذه المرأة عينها تصمد أمام أعتى الناس وأكثرهم بلاء ، وتواجه أقسى الظروف وأمضّها بدم بارد .

● وحين يصاب الرجل إصابة تتجاوزه في عمله أو ماله ، إما أن يموت كمداً أو يصاب بالشلل العضوي أو بفقدان الذاكرة وما إلى ذلك ، ولا ينقذ الرجل مما وقع فيه إلا زوجة أو أم ترعى بقاياه ، لتنقذ ما يمكن إنقاذه ، وكثيراً ما تنطلق من

(١) هيانس : المصدر السابق ٦٤ .

درجة الصفر ، فيستعيد زوجها بسببها كل شيء ويبدأ من جديد .

وإن ما هو جميل في المرأة ويثير الإعجاب بها حقاً أن المرأة التي تمارس عملها في المواجهة والصمود تظل واثقة من أعماقها بقدرتها فلا تزيدها النوائب إلا صلابة فوق صلابة وقوة ويقيناً إنها ستحقق ما تريد ولا تزيدها الأيام إلا صفاء في الذهن وقوة في البصيرة وإحكاماً في التخطيط والتنفيذ .

يروي تاريخ الإسلام أن النبي محمداً ﷺ روّع أشد الروع حين آتاه الوحي أول مرة وهو في الأربعين ، وأُخذ أخذاً شديداً بكل ما فيه ، فدخل على خديجة وهو يقول : زملوني زملوني ودثروني دثروني ، ولما شاهدت السيدة خديجة النبي جزعت وأصابها أول الأمر وابل من الذعر على زوجها ، إلى أن مضت به ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ـ وكان رجلاً قد دخل في النصرانية وهو جاهلي ـ وقبل أن يطمئنها ورقة ويقول لها : « هذا الناموس الذي أنزل اللهُ على موسى » قبل ذلك كانت خديجة تسعى لتهدئة النبي وهي تقول : « كلا والله ما يخزيك

اللهُ أبداً إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الأوهام ، ولا مراء في أن الله قد اختارك لهداية قومك »(١) .

لقد قالت هذا القول مدفوعة بحدسها ولقانتها وهي لم تُسلم أو تؤمن بعد ولا كان الإسلام قد انتشر أو عرف أو ذاع بين الناس .

يقول التاريخ : إن النبي لم يُروع بعد ذلك مثل ما روع أول مرة ، مع أنه تابع الدعوة ثلاثاً وعشرين سنة . كما يقول : إن رسول الله ﷺ قد حزن حزناً شديداً على فراقها وحفظ لها جميلها وعظمة مواقفها .

(١) فما أعظم هذا الحدس وما أعظم المرأة التي قامت به . ويا لخيبة الذين يقولون بضعف تفكيرها .

الصحة النفسية للأسرة

تتصل قضية الأسرة بصميم تكوين الإنسان ، لأنها أول مؤسسة تخصُّ الفرد الإنساني وتتلقفه منذ ولادته ، وإذا قيل : إن الإنسان اجتماعي بطبعه ، فذلك يعني أنه ينتمي إلى الأسرة بالدرجة الأولى أما انتماؤه إلى نقابة من النقابات أو بلد من البلدان فلا يكون إلا بعد انتمائه إلى أسرة من الأسر بزمن طويل ، لقد عرفت البشرية الأسرة قبل أن تعرف النقابة ، والمدينة والوطن ، هذا من الناحية التاريخية ومن الناحية الفردية نجد الأسرة أول دائرة تحيط بالفرد وتبث فيه آثارها وانطباعاتها القوية ، وهناك من يرى أن عاطفة حب الوطن ليست إلا امتداداً لعاطفة حب المنزل وحب الأخوة والآباء والأجداد . إن أقدم تكتل اجتماعي عرف لدى علماء الاجتماع البشري ، لا يخرج عن أن يكون شكلاً من أشكال الأسرة كما أن آخر صورة من صور التطور الإنساني تظل ضمن دائرة الأسرة ،

وطبيعي أن تختلف الأسرة اليوم عن الأسرة في غابر الزمان من نواح كثيرة ، إلا أنها تظل على الدوام ضرورة من ضرورات الحياة البشرية ، وواحدة من مستلزمات الحياة والاجتماع الإنساني ، وينبوعاً فياضاً وأبدياً للعلاقات الحميمة .

كانت الأسرة قديماً هي المجتمع بأسره ، وكانت ذات يوم تحتوي عناصر الاجتماع كلها . في ذلك الحين قامت العلاقات الاجتماعية على أساس القرابة والعصبية ، ثم عمل التطور الإنساني عمله في اختيار الأنسب والأصلح ، فضعُفت صلات القرابة والدم ، وتولدت عنها صلات أخرى أكثر انفتاحاً وسعة ومرونة ، كالزمالة في العمل ، والمواطنة في الوطن ، ورافق هذا التطور تضاؤل في حجم الأسرة وأفرادها فانتهت إلى الشكل الذي نألفه ونراه اليوم مؤلفاً من أب وأم وأولاد .

هذا من حيث التكوين ، وأما من حيث الوظائف فقد عانت الأسرة تطوراً آخر سار في الاتجاه نفسه فبينما كانت الأسرة تضطلع بكثير من المهات الاقتصادية القضائية والحربية والتربوية ، وبينما كان ينتظر منها أن تؤمن غذاء أفرادها

وتحفظ صحتهم ، وبينما كان عليها أن تقضي في خصوماتهم ، وتحفظ حقوقهم ، وتردع المعتدين عليها ، وكان من بعض واجباتها رد الأخطار الخارجية ودفع الأذى عن بني العشيرة ، تبدلت الأمور بعد ذلك ، فقامت المصانع لتخفف عن الأسرة كثيراً من الأعمال التي تتعلق بصنع الطعام واللباس والإنارة والتدفئة ، وقامت مراكز الصحة بالعناية بالمرضى ، وتقديم الدواء ، وأخذت الجيوش على عاتقها مهمة الحفاظ على البلاد ، كما اضطلعت المدارس والمؤسسات الدينية بكثير من مهمات التنشئة والتربية والتعليم .

والجدير بالذكر أن الأسرة على الرغم من تطورها وتحول أشكالها ووظائفها فإنها ما زالت راسخة الأصول ، قوية الدعائم ، تملي وجودها على المجتمعات البشرية كافة ، وتضطلع بكثير من المهام الرئيسية التي لا غنى للبشر عنها ، ويستحيل أو يصعب أن تقوم المؤسسات الأخرى بها .

وإذا شئنا أن نلخص هذه المهام والوظائف استطعنا أن نحصرها فيما يلي :

وظائف الأسرة الحديثة (رعاية الطفولة) :

١ ـ ضمان الحاجات الأساسية للعيش :

إن الطفل الإنساني أضعف أولاد المخلوقات الحية عند الولادة ، في حين أن عليه أن يكتسب أرقى أنواع الحركة ، وأدق ضروب النشاط التي تقوم بها الكائنات الحية فهو أضعف المخلوقات لأن تكوينه أقل تماسكاً من غيره ، ولأن عضويته عاجزة في البداية عن تحقيق حاجاته ، فبينما نرى أن الدودة الأرضية إذا قطعت إلى قطعتين انكمشت كل قطعة على ذاتها وأصبحت دودة مستقلة أي كائناً جديداً يحقق لنفسه كل حاجاته وبينما نرى المولود من الدجاج يعرف خلال الساعات الأولى من حياته كيف يقفز برجليه نحو الحَب الذي تراه عيناه ثم يتلقف بمنقاره منه ما يغذيه ، نجد أن المولود الإنساني يحتاج إلى شهور طويلة بل سنوات عدة حتى تستطيع يداه أن تمتد جيداً إلى قطعة اللحم فتقطعها ، وتتناولها بطريقة مهذبة أو مقبولة ومحكمة ، ولا يعني هذا أن فرخ الدجاج أذكى من الطفل المولود الإنساني ، وإنما يعني أن فرخ الدجاج الذي يقفز منذ الولادة

نحو الحَب إنما يتوجه بالآلية الغريزية ، أما الإنسان الذي يطهو الطعام وينقيه ويقطعه بشكل لبق إنسانياً ومقبول إنما يفعل ذلك بالعقل والإرادة ، وفعاليات العقل والإرادة لا يكتسبها الإنسان ولا تتكوّن مرة واحدة ، كما تتكون الغريزة عند الحيوان ، بل يحتاج في اكتسابها إلى زمن طويل .

إن ضعف تركيب الإنسان وصعوبة أعماله وحركاته يؤديان إلى أن تطول طفولة بني البشر أي أن تستطيل المدة التي يقضيها بنو الإنسان معتمدين على الأسرة ، وهكذا نستخلص أنه لا مناص من الأسرة ؛ لأن الوليد الإنساني عاجز عن العيش دون معونة ذويه وخاصة في بدء حياته وبدء وعيه . والأسرة تأتي لتروي حاجات الحياة الأساسية كالرضاعة والتغذية والحماية من المرض ، وتأمين السكن واللباس ، نعم لقد صنعت المعامل الأغذية والألبسة والأدوية فخففت عن الأسرة كثيراً من المشاق والأعمال . ولكن من يضع الأغذية في فم الصغير يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، ومن يتعهده بالدواء إذا مرض ويدثره باللباس الملائم لتحولات الطقس ؟؟.. إنها الأسرة . إن الأسرة هي التي

تصنع ذلك كله ، وتقدم للمواليد ما يسدُّ حاجاتهم المادية وحاجاتهم النفسية ، وهذه هي الأمور التي سيدور حولها بحثنا .

٢ ـ الحاجات النفسية :

الإنسان جسم ونفس ، وللجسم حاجات وللنفس حاجات ، فإذا كان الطفل محتاجاً إلى الطعام والدفء والدواء فهو في الوقت نفسه محتاج إلى العناية والعطف والتشجيع والمحبة ، وإذا كانت الحاجات الأولى تؤمَّن بطريق الأسرة وغير الأسرة أحياناً ، فإن الحاجات الثانية لا تؤمَّن إلا بطريق الأسرة ، والأسرة وحدها . **إن الطفل بحاجة إلى أن يكون (موضع اهتمام) وأن يكون (موضع محبة وعناية)** ، وأن يُحس بأن له كياناً واعتباراً ، وأنه (يستطيع أن يُحِب ويُحَب) و (يستطيع أن يمتلك أشياء تخصه وحده) يتصرف بها ويكيفها ويتكيف معها فهل ثمة من يحقق ذلك كما تحققه الأم والأب في الأسرة ؟؟..

قد تتمكن المدنيّة من صنع ملاجئ للصغار تضعهم بالجملة

بدلاً من البيوت التي تحضن الأطفال ، قد تصنع الحضارة مؤسسات تبتكرها وتمدها بالمال ، ولكن ما الذي يحصل إذ ذاك ؟.. لقد جرب سبيتسز وهو أحد العلماء المعاصرين تجربة طريفة ، فأتى بمجموعتين متشابهتين من الصغار ولنطلق عليهما (ب ، جـ) في إحدى دور الملاجئ واللقطاء وراح يقدم للمجموعتين الطعام والشراب والغذاء نفسه (أي أنه ضمن للمجموعتين حاجاتها الجسدية بمقدار متكافئ) ولكنه أخذ يخص إحدى المجموعتين ولتكن (ب) مثلاً بمحبة أكثر ورعاية وحنو أوضح فتبيّن له بعد مدة طويلة ما يلي :

١ ـ يتميز الفريق (ب) إجمالاً بنمو جسمي واضح وصحة عضوية متألقة .

٢ ـ يتميز الفريق (ب) إجمالاً بنمو عاطفي ووجداني وصحة نفسية .

٣ ـ يتميز الفريق (ب) إجمالاً بنمو اجتماعي ومقدرة على التكيف مع الآخرين .

وما هو جدير بالذكر في هذا المجال أن أحداً لا يستطيع أن يقوم مقام الأم نعم إن في وسع المربية ـ في الملجأ ـ أن تعنى بالطفل أو أكثر ، ولكن عنايتها لا تخرج عن كونها (خدمة بالجملة) وهي عاجزة عن أن تحس في نفسها بمشاعر الأم وحنان الأم ، ولن تتمكن من تقديم خدمات مماثلة أو قريبة من خدمات الأمومة . إن المربية تُعنى بالطفل المشوه والأكمه والأبله والبنت القميئة ، فلا يستطيع الحصول على العناية إلاّ من كائنات تتغذى بخدمته وتحيا بأمل أن ترتقي به ، وتضمن نموه بلا مقابل .. وبالعكس فإن الأم مستعدة أن تقدم للناقصين والمشوهين من العناية والعطف مثل الذي تقدمه لأطفالها السليمين أو أكثر في معظم الأحيان . تقول الحكمة المشرقية : مهما كنت غنياً وكنت قادراً على أن تدفع فإنك تظل عاجزاً عن تقديم التعويض المجزئ لأي امرأة مقابل أن تربي ولدك مثلما تربيه أمه وبلا مقابل[١] .

وقد قام العالم والطبيب النفسي البريطاني (Bowlby)

(١) راجع كتاب Parent Enfant Bonding : ٧ .

بدراسة الأطفال الذين كانوا يُجْلَون عن المدن الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية فيُحرمون من عناية أمهاتهم ويوسَّد أمر تربيتهم إلى أفراد يعاملونهم بالجملة لا فرادى ، دلت دراسة هؤلاء الأطفال على ما يلي :

١ ـ علت وجوههم أمارات الوحشة والبعد عن الأمان .

٢ ـ أظهر هؤلاء الصغار عجزاً عن عقد صداقات مع غيرهم من الصغار والكبار .

٣ ـ أظهر هؤلاء الصغار عجزاً عن تقبل الحياة والحُب ومنحه أو تبادله .

٤ ـ وبالعكس أظهروا نزعات عدوانية صريحة نحو المجتمع وخاصة حين وصلوا إلى سن الشباب .

٥ ـ كانوا أصعب وأكثر استعصاءً على العلاج والتقويم ومتابعة الحياة بشكل عفوي وهانئ . إن الأمان الذي يلقاه الطفل ويمتلئ به حين يرى نفسه في بيته هو مزيج من الراحة والثقة والتقدير العميق والمودة وهذا الأمان يستحيل أن يحصله

خارج الأسرة أو يحصّل نظيره أو حتى بديلاً ضرورياً عنه . وهذا ما يكون نتيجة من نتائج السكينة التي أنْعَمَ الله بها على الأزواج تنتقل إلى الأبناء .

الخلاصة :

الأسرة ضرورية لتأمين حاجات الطفل النفسية كالحاجة إلى المحبة والحاجة إلى الطمأنينة وإلى التقدير والتشجيع .

وهكذا فإذا ما توفرت للطفل هذه الحاجات العاطفية في ظل أم حنون وأب رائق استطاع أن يتزود في رحلة الحياة بذخر طيب من الشجاعة ، يطمئنه من الداخل ، ويسعفه في مواجهة ملمات العيش وصدماته . هذا من الناحية العاطفية .

ومن الناحية العقلية تقدم الأسرة خدمات طيبة في النواحي الآتية :

أ ـ اكتساب اللغة :

فالأسرة هي أول من يعلم الطفل الكلام ، وبتعبير آخر هي أول من يعطي الطفل قوالب التفكير إذ إن التفكير

يستحيل دون اللغة ونحن حين نفكر ـ حتى ولو كنا صامتين ـ فإنما نفكر بكلمات .

إن اللغة أداة الاتصال بين الإنسان والذين من حوله .

ثم إن اللغة أداة الربط والوصل عبر الزمان ، فهي تصل الماضي بالحاضر وتحفظ خبرات الأمة ونضارتها ، وتنقلها إلى الأجيال وهي أداة ارتقاء فتنقل الكائن الإنساني من التعامل بالمحسوسات إلى التعامل بالأفكار والمعقولات ، إن الطفل الذي لم يكتسب اللغة بعد ما يزال عاجزاً عن التفكير بالمعاني ، وتكون استجاباته حسية بحتة والأسرة هي التي تنقل الطفل من عالم الحواس إلى عالم التفكير عن طريق اكتسابه اللغة ، كما تنقله من عالمه الخاص إلى دنيا العلم والمعرفة والحضارة الاجتماعية العامة .

٢ ـ اكتساب المعاني :

حين يتعرف الطفل إلى ألفاظ اللغة فإنه يكتسب المعاني ، فحين يسمع أمه تقول (بابا) مشيرة إلى أبيه فإنه يتعلم المعنى مع

اللفظ ، فتتزايد المعاني بتزايد الألفاظ ، فيتعرف الطفل إلى معاني (دادا) ، أطّا (للقطة) عو (للكلب) فهذه المعاني تدور حول أسماء الكائنات التي يعرفها ويبدأ يتصورها . ثم ينتقل بعدها إلى الأفعال فيعرف معنى الجوع والعطش والتعب .

وينتقل من الأفعال الخاصة التي تخصه إلى الأفعال العامة . (كالسيارة والبحر والقطار) وينتقل بعدها إلى الصفات (حمراء وصفراء إلخ) (باردة وساخنة) ثم ينتقل إلى العلاقات (ماما أنا نعسان) (الأطة راحت) .

٣ ـ اكتساب الأحكام :

وإذا امتلك الطفل الأسماء والأفعال والصفات والعلاقات أمكنه أن يربط بينها ، ويسمى هذا الربط بالأحكام .

وقد تنقسم الأحكام إلى موجبة وسالبة (فالموجب مثل الطير يطير) (والسالبة مثل الطير ليس سمكة)

كما تنقسم إلى كلية وجزئية (الكلية مثل كل جندي مخلص) (بعض الطيور بيضاء) .

وهكذا يتكون لدينا أربعة أحكام :

كلية موجبة كقولنا : كل طائر يطير .
وكلية سالبة كقولنا : لا واحد من الطير حجراً .
وجزئية موجبة كقولنا : بعض الزهور بيضاء .
وجزئية سالبة كقولنا : ليس بعض الناس بخلاء .

٤ ـ الانخراط في الجماعة :

تقوم الحياة الاجتماعية على مجموعة من العادات والأعراف والقوانين والطفل المولود لا يفقه ولا يدري شيئاً عن ذلك ، وهكذا تأتي الأسرة فتعلمه وتدربه على الأمور الآتية :

أ ـ تنقل إليه العادات السائدة والتقاليد الاجتماعية وتفهمه ما ينبغي ، وما لا ينبغي ، وما يحلّ أو يحرم ، وتساعده على تكوين ذوقه وآرائه .

ب ـ تكون فيه عادات العمل كالجد والدأب والاعتماد على النفس والصراحة .. الخ .

جـ ـ تكون للفرد أفكاره عن الحكم والحكومة فتدربه على

الطاعة والانصياع للقانون وفهم حقوق الآخرين والمحافظة عليها ، إن أفضل الأسر هي التي تدرب أطفالها على التبعية والقيادة في آنٍ واحد (أي على الالتزام والحرية معاً) .

د ـ تنقل للفرد المثل العليا والقيم السامية حول الدين والأخلاق والجمال فيتعرف على مقدسات الجماعة وقيمها الدينية والأخلاقية والجماعية .

٥ ـ تزايد مدة الطفولة :

إذا كانت الأسرة ترعى الطفل خلال مدة طفولته ، فإن مدة الطفولة آخذة بالتزايد المطرد مع تزايد التقدم الحضاري ، فكلما تطور المجتمع ونما تزايدت حاجاته وتعقدت خبراته وبالتالي تزايدت المدة اللازمة لإعداد أطفاله حتى يبلغوا مبلغ الرجال .

انظر إلى المجتمع الزراعي تجد الحياة فيه ميسرة ، والحاجات معدودة محدودة ، ولهذا فما أن يبلغ الفتى السنة الرابعة عشرة من عمره حتى يكون قد أتقن كل ما يلزمه لإدارة طاحون أبيه ، أو فلاحة حقله ، وأصبح فلاحاً ممتازاً .

إنه في هذه السن قادر على أن يعتمد على نفسه ويكون أسرة لنفسه فيتزوج ، وهكذا فالبلوغ الجسمي يتوافق ويترافق مع البلوغ الاقتصادي في المجتمعات الزراعية البسيطة ، أما المجتمعات الصناعية فإنها تطيل أمد الطفولة (الاقتصادية) وتجعل فرقاً بين البلوغ الجسمي والبلوغ الاقتصادي إن الشاب المعاصر في القطر العربي السوري يستطيع أن يعتمد على نفسه حول الخامسة والعشرين أو الثانية والعشرين أما جده وأبوه فكانا قد اعتمدا على نفسيهما وتزوجا خلال السادسة عشرة من العمر أو قبلها .

أما الشاب الغربي المعاصر فلا يكاد يحسن الاعتماد على نفسه قبل الثلاثين ولا يتزوج قبل الخامسة والثلاثين .

والنتيجة التي نستخلصها هي أن التقدم الاجتماعي يزيد من مدة الطفولة ولا ينقصها وهذا يعني أنه يزيد من أهمية الأسرة وضرورتها للإنسان . ولكن لعل معترضاً يقول : إن التقدم الاجتماعي قد ساعد على إيجاد مؤسسات كثيرة لرعاية الطفولة والعناية بها ، ومن شأن هذه المؤسسات أن تقوم بديلة عن الأسرة ، والحق أننا لسنا بحاجة لأن نطيل المناقشة لنبين

ما في الاعتراض من ضعف ؛ وذلك لأن المؤسسات التربوية البديلة تظل عاجزة عن تحقيق ما تصنعه الأسرة ، وهي على العموم تستطيع أن تدعم الأسرة فترفدها في جانب أو أكثر من الجوانب ، ولكنها لا تستطيع أن تقوم مقامها .

الأسرة ملجأ نفسي :

يحتاج المرء في حياته إلى السكينة والقرار ويود دوماً أن يسلو متاعب العيش ، ومشاق العمل ؛ ولهذا فالعامل يقتلع همومه حينما يشرع باقتلاع ثياب عمله ، ويرتدي ثياب البيت النظيفة . في البيت يستطيع الإنسان أن يجد جواً آخر (غير جو الحياة العملية المتكلفة) يجد فيه جواً يتحدث فيه الرجل بصراحة عن ضعفه ومخاوفه ، فيجد قربه مَن يحسن فهمه ، ويدرك ضعفه ـ دون أن يستغل ذلك الضعف . ولهذا يلذ للطفل (إذا تألم خارج المنزل) أن يبكي في حجر أمه كما يلذ للرجل أن يبوح لزوجه بآلامه ومخاوفه وأسباب قلقه .

أما المغترب عن الديار والأهل فإنه يظل بعيداً عن الشعور

العميق بالأنس الذي يعهده في بيته . وأما الجندي العائد من الحرب فلا تهدأ متاعبه ولا تزول جميع مخاوفه إلا حين يصل إلى الدار ويستقر في بيته .

ولهذا فلا عجب إذا رأينا أن الانحراف والشذوذ أو جنوح الأحداث ينجم أكثره عن اضطراب الأسرة أو المنزل ، لقد تحدث أحد المشرفين على مركز ملاحظة الأحداث فقال : نحن نتصور دائماً وجود اضطراب منزلي والوقائع تصدق دوماً تصوراتنا ، وهكذا فإن المنحرفين والشاذين في المجتمع والأشرار والخارجين على القانون كل هؤلاء إذا بحثنا أوضاعهم وجدناهم ينتمون في الغالب إلى أسر محطمة ومتفسخة ، فحيث يكون الطلاق أو تموت الأم أو يفقد الأب أو يضطرب البيت يخرج الأبناء ، فيتشردون ويتلقاهم الشارع وأبناء الشارع ليدخلوا العالم المظلم المسدود عالم الإجرام والشذوذ ، وإذا كان المجرم يوجه أذاه نحو الإنسان العادي الآخر فإن الشاذ أو العصابي يوجه أذاه نحو ذاته .

هذا وليس البيت ملجأ نفسياً للأطفال وحدهم ، بل هو

ملجأ طبيعي لكل من الرجل والمرأة ، إذ يجد فيه كلاهما ما يكمل نفسه بالآخر ، وهكذا فالبيت إذ يجمع بين الزوجين لا يحل مشكلة فردية معينة بين الرجل والمرأة فيجمعها إلى بعضها ، بل يحل قضية النوع البشري الخالدة ، وذلك عن طريق الصلة المقدسة التي تربط بين روحين تجد كل منها أليفها فتجد فيه ذاتها ، ولهذا فإن من الخطأ أن يظن المرء أن في الأسرة والزواج تُلبّى الحاجات أو الدوافع الجنسية وحدها ، والصحيح أن نقول : إن الأسرة تلبي في الإنسان حاجاته العميقة إلى أن يعيش ويحيا مع الشطر الذي يكمله ، والأصح أن الحب يهب الأزواج ألواناً زاهية من المشاعر فتشعُّ في البيت روح الأمل والتفاؤل ويسود فيه الإحساس بالأمن ، فهذه هي أهم الوظائف التي تتحقق في الزواج .

وهكذا فقد يتم اتصال الرجل بالمرأة خارجاً عن نطاق الأسرة وبعيداً عن قدسية الشرع ، ولكن هذا الاتصال يظل خلواً من طمأنينة الروح التي تربط بين الزوجة وزوجها ، ويظل مفعماً بحاجات الجسد وأنانيته ، إن العاشق مثلاً يبقى

مرتبطاً بعشيقته ما احتفظت بفتنتها ونضارتها وظلت مرتبطة به ولوقت من الأوقات ، ولكنه سرعان ما ينتقل إلى غيرها غير مبال بالمسؤولية أو الضمير .

ولكن أروع مشهد يمكن أن نراه على الأرض هو منظر رجل في الثمانين قد تقوس ظهره ، واشتعل رأسه بالشيب ما يزال ينظر إلى زوجته (التي تناهز السبعين أو أكثر) نظرات المودة والمحبة والتعلق التي كان يبعث بها إليها وهي ما تزال في شرخ الصبا وحميا الفتنة .

لقد تناقصت وظائف الأسرة من حيث الكم أو الشمول ، فلم تعد مؤسسة اقتصادية أو حربية أو قضائية ، ولكنها تعاظمت أهميتها وتركزت أدوارها ، صحيح أنها تخلت عن الكثير من الوظائف ولكنها وجدت مهمتها الجوهرية التي وجدت من أجلها وهي رعاية بني الإنسان ، أي حماية صغاره وتوفير الأمان النفسي لصغاره وكباره .

ومن هنا قيل : إن الأسرة أفضل مؤسسة لصنع العلاقات الإنسانية الحميمة ، وضمان نموها .

الصحة النفسية للزواج

إذا كانت الأسرة مؤسسة اجتماعية ضرورية لبقاء الإنسان ، فإن الزواج هو المقدمة الحضارية والمنطقية التي تسبق تكوين الأسرة في معظم المجتمعات البشرية .

وهناك نسب وروابط معنوية بين كل من الأسرة و (الزواج والعواطف) يجهلها الكثيرون . وفي بلادنا إذا أحب الإنسان أو هزته رعشات الحب ، فمن أجل أن يتزوج على الأغلب . وحتى الصغار عندنا فإنهم منذ نعومة أظفارهم يتحدثون بطريق اللعب عن الزواج والأسرة ، يقول الصبي (وهو ما يزال في الرابعة من عمره) : « لنلعب لعبة أنا بابا » ، وتقول البنت (وهي في الرابعة) : « وأنا ماما » ، إنها أقوال ألعاب ، ولكنها أكثر من ألعاب وتخيلات ، إنها بداية وتأهب لتكوين مستقبل عاطفي واجتماعي لمشاعر الصغار .

ويُمضي الأطفال طفولتهم ، وقبل أن يُقبلوا على البلوغ ، يمرون بفترة ، يتباعد فيها كل جنس عن الجنس الآخر ويدفعه عنه ، حتى إذا انتهت الطفولة ودخل الفتيان والفتيات في المراهقة أخذوا يعنون ويهتمون كلاهما بالجنس الآخر ، ونجد كل واحد من أفراد الجنسين يتوق إلى جمع معلومات وتكوين تصورات عاطفية واجتماعية عن الجنس الثاني .

وهكذا نجد أن كل إنسان سوي في بلادنا قبل أن يبلغ مرحلة النضج يرغب ويسعى كي يحصل على أفكار واضحة وتصورات محددة عن العلاقات الزوجية والعاطفية وما إليها ، ومن ثم فهو يُعنى بأن يفتش عن ملامح فتاة أحلامه ، ويسعى ليعثر على تلك الملامح في هذه الفتاة أو تلك ، ويلعب التاريخ العاطفي دوراً كبيراً في الموضوع ، ونعني بالتاريخ العاطفي (المدخرات) من الخبرة والتأثر الوجداني والمعارف السابقة التي تنقل إلى الفرد ملامح الإنسان المفضل (شكله وهيئته ولهجته وسماته النفسية والاجتماعية) وهذه المدخرات تنتمي في أصولها وجذورها إلى بداية الحياة وأولى التجارب التي ترافق تفتح

الوعي عند المولود بدءاً من فترة الرضاع ثم ما يليها من فترات تجعله يتفتح فيكتسب المشي ، واللعب ، والكلام مع إخوته وأخواته ورفاقه ، وقد كان علماء النفس إلى عهد قريب يحرصون حرصاً كبيراً على بيان أهمية السنوات الخمس الأولى في حياة الطفل وفي تكوين مزاجه وتفكيره وتكيفه العاطفي ، وفي الخمسينات من هذا القرن اكتشف علماء النفس شيئاً أهم ألا وهو (الجنين) وهو في بطن أمه يبدأ بتكوين بعض جذور هذه الخبرات ، وقد أثبتت ملاحظاتهم بواسطة التنظير والتصوير التلفزيوني أنه بدءاً من الشهر السادس يغدو قادراً على أن يسمع الأصوات ويتلقى الكثير من التأثيرات التي تتراكم في جملته العصبية ، وتبقى منذ الشهر السابع مندسّة في لا شعوره ، وتصحبه مع الولادة ، ومن ثم سيكون لها شأنها ودورها في مستقبله الشخصي وفي مزاجه وميوله ودوافعه واتجاهاته فيما يحب ويكره . متأثراً بحياة أمه والرباط أو الاتصال معها والجو الانفعالي والاجتماعي الذي يحيط بها .

عوامل الزواج في بلاد الشرق العربي :

وهي كثيرة وأهمها النضج النفسي والاجتماعي ، وحفظ النسل ، وجملة الأسباب المادية والعاطفية .

النضوج :

يتزوج الفتى في بلادنا حالما ينضج ، والنضوج ليس شيئاً واحداً ، فهناك النضوج الجسدي (الذي يظهر في البلوغ) والنضوج العقلي والاجتماعي (الذي يسمى بالرشد) والنضوج الاقتصادي (الذي يحدد بقدرة المرء على تأمين الحاجات المادية للزواج والأسرة) . فهذا النضوج لا يتوفر ولا يتم للإنسان في سن واحدة بحيث إذا بلغها الإنسان اعتبر ناضجاً ، وعلى وجه العموم فالبنات تنضج عضوياً ونفسياً قبل البنين بمعدل سنة أو أكثر ، وتلعب الصحة والتغذية دوراً هاماً في الإسراع بالنضج أو تأخيره ، فهناك من ينضج النضوج الكافي للزواج قبل سن العشرين ، وهناك من لا يعد ناضجاً على الرغم من تجاوزه الخامسة والعشرين .

يرى علماء النفس أن النضوج لا بد أن يبدأ قبل عقد الزواج ، بمعنى أن الزواج لا يصنع النضج كما يتوقع الكثيرون ، والشاب غير الناضج لا يمكن أن ينضج بسهولة في حياته الجديدة مع زوجته ، إلا إذا كان قد نضج أو سار في طريق النضوج قبل أن يبني بها زوجة .

معنى النضوج : يُعرف علمياً بأنه اكتمال النمو ، إنه مجموعة من الصفات الجسدية والنفسية والاجتماعية التي إذا تم توفرها في الفرد أمكنه أن يستقل بوجوده وصار واحداً من الراشدين الكبار .

النضوج الجسدي :

إن وصول الفتى إلى البلوغ واكتمال جسده مقترباً من الحياة الراشدة يجعله يمتلئ بالقوة ، ويحس بتدفق العافية في كيانه كله لا في جسمه وحسب ، أما إذا أفردنا للجسد كلاماً خاصاً فإن هذا ليس إلا من قبيل التبسيط وتيسير البحث ، فالإنسان وحدة واحدة ، وجسمه لا ينفصل عن عقله ، ولا عقله ينفصل عن عاطفته أو كيانه الاجتماعي .

إن الشاب الذي يحس بالحياة الدافقة تنبثق من أعماقه ، يرى نفسه مدفوعاً لكي يبذل وينشط فيحيا في أكثر من ذاته ، ويسعى ليشع نشاطه فيشمل غيره ، وسرعان ما ينعكس هذا الإشعاع على حياته النفسية والاجتماعية .

النضوج النفسي :

إن قوة الشباب وحيوية المرحلة تجعل كل شاب أميل إلى الفيض والبذل وتدفعه إلى (الأمل) في بناء حياة جديدة وتكوين أسرة مستقلة ، ولهذا نراه يتوق ويتطلع إلى أن يسخر قواه لتلك التي سيحيا معها ، ويسعد بإسعادها ، فيبدو ميالاً إلى التحرر من طفولته ، والاستعداد المتفتح للتفكير في الأيام المقبلة والناس الآخرين . ولعل أهم ما في النضوج النفسي سعي الفتى إلى (التحرر النفسي) أي تحرره من تبعية الأسرة ، فالفتى الذي عاش في دلال أمه وحمايتها والذي اعتاد أن يتعلق بأبويه وظل معتمداً عليها ، يجد صعوبة إذا استمرت الأحوال على وضعها السابق وهكذا يفتح قلبه لفتاة تشبه أمه أو تماثلها في الطبع أو الشكل إن كان فيا مضى متفاهماً مع أمه ، وإذا لم يكن

على تفاهم معها ، فإنه يفتش عن فتاة تملك صفات مناقضة لصفات أمه . وما لم يتحرر الشاب من تعلقه وتبعيته لأمه ، فإن احتمال نجاحه في الزواج يكتنفه الخطر .

النضوج الاجتماعي :

إن السعي إلى التحرر من تبعية الأسرة يترافق عند الشاب مع الشعور بأهميته الاجتماعية وتظهر هذه الأهمية في مظاهر كثيرة مثل الحرص على تحديد منزلته الاجتماعية ، وكسب ثقة الناس وتمتين الصداقة والتعاون ، فيصبح مدركاً معاني المسؤولية والواجب ومتحمساً لخدمة الآخرين والتضحية من أجلهم .

وليست المروءة التي يوقرها العرب منذ القديم شيئاً غير هذه الأمور الكثيرة . وطالما كانت المروءة مصانة كانت القيم المثلى عند العرب متفتحة وزاهرة .

ولا شك أن الفتيان يتفانون في إدراك هذه المروءة والاتصاف بها ، وإذا أخفق بعضهم في بلوغها ، فذلك بسبب انحراف التربية التي تلقى فيها المعاني والقيم ، فغدا حريصاً على

أن يـأخـذ دون أن يعطي ، في حين أن الحيـاة الاجتماعيـة لا تستقيم إلا بتوازن الأخذ والعطاء .

هذا عن الشاب ، أما الفتاة في بلادنا ، فإنها بدورهـا تفكر في الزواج حينمـا تبلغ سن الرشـد ، ولكن موقفهـا يظل محوطـاً بالتريث والتطلع والحذر ، وبوجه خاص في الأوساط المحافظة ، وهي تعلم أنها لا تستطيع أن تكون البادئة وصاحبـة المبـادهـة ، ولـذلـك فهي تتخـذ مـواقف الانتظـار وإذا رأت أن إحـدى قريباتهـا أو الصويحبـات قـد خطبت أو تزوجت فـإن غريزتهـا الأنثويـة تستيقـظ وتبـدأ تقلق خشيـة أن يفـوتها القطـار !..، وقلقها ليس نابعـاً عن رغبتهـا بتحصيل محـاسن الزواج ومزايـاه فقط ، بل ينبع أيضاً من خشيتها أن تبـدو وكأنهـا (بـائرة) أو أنها ذات عيب من العيوب ، جعل أنظار النـاس لا تقع عليهـا . وإذا صـدف أن كانت تضيق بـأسرتهـا من قبل ، فـإن توقهـا إلى التحرر يجعلها تقبل الزواج من أول قادم أتى يطلب يدهـا حين تكبر .

وواضح أن احتمال النجاح (في التسرع بـأمور كهـذه) احتمال غير مؤكد ، وإذا لم يحالف الفتاة الحظ ، فإنها تنتقل من سيطرة الأب إلى سيطرة الزوج أو أمه وأسرته .

إذا صدف وكانت الفتاة قد انخرطت بالعلاقات الاجتماعية من غير أن تملك نصيباً كافياً من الوعي والنضوج ، فمن الراجح أن تتعرف ببراءتها إلى فتى قد تراه هنا أو هناك من المتحللين العابثين الذين يسعون إلى اقتناص المتع دون ضوابط ، وبعيداً عما أسميناه بالمروءة ، فتقع المسكينة (التي نشط خيالها واشتط) في شر اختيارها ، إنها في الحقيقة لم تحقق الاختيار (لأن الاختيار الحق في شأن الإرادة الناضجة بل هي انساقت وهي تظن أن ما يتفوه به الشباب من وعود السعادة وما يطلقه من كلمات الإعجاب وألفاظ المديح سينتهي بها حتماً إلى الزواج المثالي لكن معظم فتياتنا ، يجهلن أن الشباب في بلادنا لا يتزوج ولا يختار شريكة لعمره من بين اللواتي تعرف إليهن ومشين معه أو سايرنه !!. بل حتى الذين يُلقبون بكونهم عصريين من

شباب العرب فإنهم يوم يعزمون على الزواج لا يفكرون البتة بمن اعتادوا صحبتهم من قبل .

وهذه حقيقة يجب أن تعيها فتياتنا ، وأن تدركها حق الإدراك . إن الرجل العربي المتحلل شأنه في هذه الأيام شأن رجال الجاهلية يعبث ويستمتع ، ولكنه لا يسمح لابنته أو لأخته أن تجاريه ولو بنسبة ضئيلة مما يفعله هو ذاته[1] .

وبتعبير آخر فهو إذا سمح للمرأة أن تمارس بعض حريتها ، فهو لا يسمح بذلك إلا لكي يجد من تسمح له أن يستمتع ، هذا موقف متناقض ، ولكنه هو السائد بكل تأكيد في سائر بلاد العرب لدى المتحللين .

(١) ولهذا نجد أن دوافع ما يسمونه تحرر المرأة تكمن في أن تصبح البنت كأخيها الشاب قادرة على التفلت مثله وفرض ذاتها .

خلاصة القول :

أن الزواج في بلادنا ضرورة بيولوجية ودينية ونفسية واجتماعية ، وهو يتطلب النضوج والسير نحو اليفاع ، وما أن ينتهي الفتى من المراهقة ويركز وضعه المادي ، حتى نراه يفكر في الزواج أو يتزوج من غير تفكير .

حفظ النسل :

لقد كان إنجاب الأطفال وما يزال دافعاً قوياً من دوافع الزواج لدى الكثيرين ، والناس في بلادنا يملكون الرغبة في إنجاب البنين ، والمرأة نفسها تُحس أنها تتعزز مكانتها ، وأن جذورها تترسخ وتتعمق إذا هي أنجبت البنين ، وإن نزعة العربي الجاهلي لتقدير الذكر وخوفه من العار يلحقه حتى الآن ويجعله يخشى ويتوقى من أن تأتيه زوجه بابنة ما يدري كيف يحميها ويحمي شرفها من العار إذا كبرت .

وهكذا عرف العرب عادة وأد البنات وقتلهن قبل بلوغهن سن الصّلات أو العلاقات . ولقد قاوم الشرع الإسلامي عادة

الوأد ونعى على العرب كونهم ﴿ إذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به أيمسكه على هُونٍ أم يدسُّه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ [النحل : ٥٨/١٦ ـ ٥٩] .

لقد نجح الإسلام في مقاومة عادة الوأد ، ولكن العرب ما زالوا حتى اليوم يفضلون الأولاد على البنات تفضيلاً واضحاً لا لبس فيه ولا هوادة ، والأغرب في هذا أن النساء أنفسهن يشاركن في هذا التمييز الظالم حتى إنك كثيراً ما تسمع (من نساء متحررات أو غير متحررات) تسمع الواحدة منهن تقول : إذا ساد جمعهن الصمت : ماذا ؟.. ولِمَ سكتم هل جاءكم خبر ولادة بنت ؟؟..

الأسرة والنسل :

لا بد أن نشير إلى أن النسل وإن كان هدفاً من أهداف بناء الأسرة وعاملاً من عوامل نشوئها إلا أنه يظل أضيق من مفهوم الأسرة ، نعم إن الناس يتزوجون من أجل بقاء النّسل ، ولكن زواجهم يحقق أموراً كثيرة أخرى مثل تربية بني الإنسان ،

وضمان الجو الملائم لحمايتهم ، وتأمين ما يرتقي بهم وينمي خصالهم الرفيعة من المودة والرحمة والاستقرار النفسي والاجتماعي . وهكذا نستطيع أن نقول : إن الإنسان هدف من أهداف الزواج ولكنه ليس هدفاً لكل زواج ، فقد لا يتسنى لبعض الزوجات العقيمة أن تنجب ، وتتابع حياتها الزوجية وهي عاقر ، ويظل الزوج في بعض الحالات أو جُلها وفياً لزوجته تربطه بها أوثق الروابط وأقواها .

وكثيراً ما نسمع أن المرأة العاقر في بعض بيئاتنا تسعى بنفسها إلى العثور على زوجة أخرى لزوجها وتغدو وكأنها أم للزوجة الجديدة التي تنجب وتأتي بالبنين والبنات .

العامل المادي :

وقد تعاظمت أهميته في العهود الإقطاعية والرأسمالية في ديار الغرب ، كان الرجل في عهود الإقطاع بأوربا يسعى لينمي ثروته ، ويدعم قواه المادية ، ويزيد في رقعة ممتلكاته وأراضيه ، ولذلك فهو يسعى ويُعنى كي يعثر على امرأة تنتمي لإحدى الأسر الموسرة ، فإذا تم زواجه منها انتقلت مكانتها

الاجتماعية وأموالها وما تمتلكه من عقار وغيره وأصبحت في حوزة الزوج ، وهكذا عرف الغربيون نظام (الدُّوطة) يقدمها ذوو البنت إلى الراغب بالزواج ، من ابنتهم ، وأصبحت الدوطة عرفاً اجتماعياً لا بد منه كي يتم الزواج ، كما أصبحت مع الأيام هماً من الهموم الكبيرة يتلبس الأسر التي تنجب البنات .

وفي المجتمع الإسلامي اعتبر (المهر) هدية يقدمها الرجل إلى التي سيبني بها زوجة له ، ولم يحدد الشرع هذه الهدية ، بل جعلت لكل إنسان حسب طاقته ، وقد حاول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أن يحدَّ من المغالاة في كمية المهر ذات مرة ، فردت عليه امرأة من النساء مستشهدة بالآية التي تقول : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ [النساء : ٤/٢٠] .

هنا تراجع الخليفة وقال قوله الشهير : « لقد أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

وقد جرى العامة في المجتمع الإسلامي على أن يجعلوا المهر أساساً للزواج لا يتم من غيره ، وكان هذا المهر عادة من عادات العرب القديمة ، فاستمرت هذه العادة ، وجعلت بمثابة الشرط الملزم لكل زواج ، مع أنه غير ذلك ، بدليل أن الرسول ﷺ زوج رجلاً من غير مهر ، وزوج آخر بمجرد كونه حافظاً بعض آيات أو سور من القرآن .

إن عدم مادية الزواج في الإسلام جعلت رجلاً كبيراً من رجال الفقه والقانون المعاصرين وهو (الدكتور عبد الرزاق السنهوري) يرى أنه « لا يجوز أن يُطلق على الزواج اسم (عقد) إذ لا يسمى الاتفاق عقداً إلا إذا تضمن التزاماً مالياً في نظام الحقوق الخاصة ، وقد أحسن الجمهور حين سمى هذا العقد (كتاباً) » ونحن نرى أنه عقد ولكنه من نوع خاص ، معنوياته تغلب مادياته .

هذا وتتعرض كل من (الدوطة) و (المهر) إلى إساءة الاستعمال ، وقد ظهر في بلاد الغرب سوء استعمال للدوطة عندما تبين أن البنات الفقيرات لا يملكن الزواج بغير مال يكون بين

أيديهن ، فأدى ذلك إلى تأخر سن الزواج ، أو إلى الرضى بعلاقات لا يتم فيها الزواج الرسمي ، فعرف الزواج المدني هناك ، ومن ثمَ عُرف الزواج الحر .

أما سوء استعمال المهر فيكون عندما تتفتح أطماع ذوي البنت فيجعلون المال (أو العامل المادي) وسيلة للابتزاز ، وبذلك يصبح المال غاية ، في حين لا يعدو أن يكون مجرد وسيلة من الوسائل التي لا ترتقي إلى مستوى القيم الإنسانية الهامة .

وعلى أي حال فإن في وسع المرء أن يرى أن إساءة استعمال المهر تظل أخف ضرراً وأقل أذىً من إساءة استعمال الدوطة .

الزواج والحياة العاطفية :

تطرح قضية العلاقة بين الحب والزواج في معظم جهات الأرض ، وتطرح الآن في زماننا بشكل واضح مع تطور وسائل الترفيه والافتتان مثل السينما والتلفزيون والإذاعة ، ولا يعدم المرء أن يطلع أو يطالع الأدب القصصي المنتشر أو يشهد أفلاماً

مكثرة ومؤثرة ، تتحدث عن الحب ولزومه كشرط للزواج .

وهناك الكثيرون الذين يرون أن ثمة بداهة لا تحتمل النقاش مفادها أن يبنى الزواج على الحب أو أن يكون الحب شرطاً من شروط الزواج الناجح يسبقه أو يمهد له .

إن نظرة دقيقة فاحصة لهذه القضية ترينا أن الموضوع ليس من البساطة بمثل ما يتصور الناس لأول وهلة ، والوقائع المشاهدة تؤكد عدم وجود تطابق بين الحب والزواج ، واللغة نفسها تساعدنا على تبيين عدم التطابق بين مفهومي العاطفة والزواج ، ففي جميع اللغات يقول الناس عن الحب : « إن فلاناً وقع في الحب » ، ويقولون عن الزواج : « إن فلاناً عقد زواجه على فلانة » ، فكأننا في الحب نقع بشكل لا إرادي أو غير واعٍ ، في حين أننا في الزواج نعقد اتفاقاً بكامل إرادتنا ووعينا .

يقول العالم النفسي (إدلر) : « إن الحب وحده لا يستوعب ولا يستغرق متطلبات الزواج ، لأن الحب متعدد الألوان ، وهو لا يتوجه الوجهة الصحيحة ويجعل الزواج موفقاً

وسعيداً إلا في حالة واحدة (أو نوع واحد من الحب) وهي أن يقوم على أساس واع وثابت من المساواة (في الاعتبار أو الاحترام) بين طرفي الزواج كما يؤدي إلى تكامل العلاقة بينهما .

ملاحظة حول العامل العاطفي :

وما ينبغي أن ندركه حينما نتحدث عن العاطفة (وعاطفة الحب بشكل خاص) أنها ليست من الأمور الثابتة ثبوت تمثال من الرخام أو آنية للزهور ، بل إن العاطفة أقرب إلى الديناميكية أو التغير والتحول وأكثر من هذا فقد كشف التحليل النفسي للعاطفة أنها تحوي في صميمها استعداداً لما يناقضها ، إذ لا توجد عاطفة خالصة إلا ويمازجها أو يخامرها نقيضها ، فالحب يحوي في طياته استعداداً للكره والإقبال على شيء ما يحتوي في ذاته إمكانية للإحجام عنه والابتعاد ، وكثيراً ما يتحول الغرام الفائر المشبوب إلى حقد ونفور وعلى الرغم من هذه الملاحظة فإننا نرى أن قدراً متوازناً من العاطفة يمكن أن يضفي على العلاقات لوناً محبباً ومقبولاً ، ودون هذا اللون تصبح الرابطة بين الأزواج باهتة خالية من الجاذبية .

وهكذا فإن العاطفة المتوازنة بين الأزواج والتعلق المعقول لكل من الزوجين بالآخر يعد أمراً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه ، فما من حياة زوجية سليمة يمكن أن تدوم من غير اتحاد أو تقارب في الرغبات والميول . هذا كلام حق ، ولكنه لا يمكن أن يكون كلاماً عاماً صحيحاً بشكل مطلق ، وذلك لأن من الواجب (كي تدوم العاطفة وتنمو نموها الأكمل في الأسرة) أن تمازجها أشياء أخرى مثل ضبط النفس ـ احترام الذات ـ الشعور بأهمية الحياة .. وأهمية الآخر وعناية كل طرف بالطرف الآخر وذلك بتوفير الاهتمام بالأمور الصغيرة والكبيرة للشريك .

قالوا : ليس المهم في الزواج أن نطيل النظر إلى بعضنا (كما يفعل المحبون والمراهقون) وإنما أن ننظر في ذات الاتجاه ، فالاتجاه الموحد هو الذي يحول حب المراهقين إلى تعلق باطني ، وهذا التعلق هو الذي يجعل في حياة الزوجين طمأنينة لا حدَّ لها واستقراراً لا نظير له . إن الواحد منا يتعامل مع شريك حياته وكأنه يقول : « أنا لا أتصور كيف أعيش من غيرك » ، « وأملي أنكِ لن تموتي أبداً » .

وجوهر القضية في الزواج هو توفر الرغبة العميقة في الإنسان إلى أن يكون ويظل مع الشطر الذي يكمله ، فلا عجب إذا سمعنا أن الرابطة بين الزوجين (الناجحين في زواجهما) تظل قوية وتزداد قوة ، حتى بعد أن تهدأ أو تتوارى قوى الجسد بفعل الشيخوخة .

بين الحب والمحبة :

إن العاطفة التي تنبثق في المنزل الزوجي أجدر بأن تسمى بالمحبة . والمحبة تختلف عن الحب من نواحٍ عديدة ولكي نجلو هذه النقطة ونوضحها نلجأ إلى التمثيل الآتي : إذا شبهنا الحب بشمعة لاهبة وشبهنا المحبة بنبتة انبثقت من حبة قمح ، وجدنا : أن الشمعة كيان ملتهب فيه الحرارة والضياء والتشعُّع (أشبه بالحب) ، أما نبتة القمح فهي كيان حي ينمو من الداخل حتى يثمر وينبثق منه سنبلة مليئة بالحَب ، إن الشمعة يلمع نورها ويتألق وتبدو شيئاً مضيئاً لا نظير له . وتظل شيئاً باهراً ما دامت متوهجة لكنها في حقيقتها شيء استهلاكي لا مستقبل له . فكل لحظة تمر بها تقربها من نهايتها ولسوف تنطفئ ذات

لحظــة ولا تخلف إلا قطرات تــدل على أن الشمعــة كانت هنــا مضيئة فيما مضى .

أما شتلة القمح فإنها لا تحوي ضياء باهراً يلفت النظر أو يخلب اللب بفتنته أو حرارتــه ، ولكنهــا في حقيقتهــا (شيء ثمين ، وثمنه أنه يتفتح في المستقبل (حين تغرس في التربة مثلاً) إنه يتفتح بأمر الله . إن الشمعة تمثل (الحالة الاستهلاكيــة) أمــا النبتة فتمثل (الحالة الإنتاجية) .

وكما أن نبتة القمح لا تكبر ولا تنمو إلا إذا توفرت لها عدة شروط (كالماء والهواء والغذاء ...) فإن المحبة لا تدوم أو تنمو بين الزوجين إلا إذا توفرت لهــا أمــور أو شروط كثيرة مثــل (اللهفة الصادقة ، والكلمات اللائقة والحرص الأكيــد على الشريك والاهتمام بتقديم العناية والراحة ... والفرح بالشريك ، إن المحبة أكثر من عاطفة .... إنها بصيرة ومنهج في الحياة ، وحتى الاتصال الجسدي بين الزوجين (الــذي هو أهم شيء في الحب) فإنه في المحبة عظيم الفائدة ؛ لأنه يفتح بصيرة الزوجين على أهمية الإنسان الشريك وينمي تعلق كل منهما بشريكه ،

ويسبغ على وجودهما معاني الأمل والفرح والرضى . هكـذا عرف آدم حواء الخالدة .

ومع ذلك فإن الاتصال الجسـدي ليس كل شيء في المحبـة . كما هو الحب ... إن المحبـة البصيرة لا تفتـأ تصعـد وتصعـد ، إنهـا تصعد المنحدر نفسه الذي يهبط عليـه الحب المفتون . المحبـة عمل إرادي وعقلي وفعال ، ومجموع هذا كلـه يمكن أن نطلق عليـه اسم المودة » .

إن المـودة مفهـوم واسـع وغني ، يعبر عن الشخصيـة بكل أبعـادهـا وغنـاهـا ، وحين يقول أحـدهم : « إنني أود .. » فـإنـه يقصد : أنا أريد ، وأنا أختار ، وأحرص بصدق وبعمق حـاضراً وفي المستقبـل وأنـا أفضـل وأقـدّر ، وأحب ... كل هـذا يُجملُـه ويجمعُه بكلمة المودة .

أمـا الحب فهو حين ينفرد بـالتـأثير لا يؤدي بـالضرورة إلى المحبـة ، إنـه يبهر البصر ، ولكنـه قلمـا ينير البصيرة وقـد يكون الحب شعلة مضيئة ، ولكنه يشترط النقاء والصفـاء والصـدق كي

يكتسب الاستمرار والاستقرار ، وإذا لقي الحب ذلك نما وتحول إلى المحبة ، وإذا لم يتوفر له ذلك أصابه الهمود ومال إلى الانطفاء .

معيار النجاح في الحياة الزوجية :

هناك الكثيرون الذين يظنون أن الزواج جنة الخلد ، تلك الجنة التي تجري فيها الأمور وفق ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها المتع وليس فيها الواجبات والواقع بخلاف ذلك ، فالزواج مسؤولية وواجب بالإضافة إلى كونه بهجة ومتعة ، وهو ليس باباً إلى السعادة وليس حارساً يحرس السعادة ، وإنما هو يحتاج إلى ما يحرسه وعلى الزوجين أن يمتلكا تعاطفاً فوق المعتاد ، أي مقدرة خاصة تدفع كل طرف إلى أن يوحد ذاته ويدمجها في ذات الآخر ، فهذا هو الحارس الحقيقي للزواج والسعادة في الزواج .

وإذا رأينا في عصرنا الحاضر أن الذين أُعدوا إعداداً جيداً للحياة الزوجية قليلون ، فذلك لأنهم لم يتعلموا قط أن ينظروا بعين الآخر ، وأن يسمعوا بأذنيه ويشعروا بمشاعره .

وهكذا يخفق في الزواج الإنسان الأناني ، لأن الأناني لا يهتم إلا بنفسه ولا يرى إلا نفسه ، إنه طراز من الناس لا ينتظر منه أن يغير من أخلاقه في يوم وليلة بمجرد أن تنضج عنده الحاسة الجنسية . إنه شخص غير مستعد للزواج كما أنه غير مستعد للحياة الزوجية والاجتماعية . إن الاهتمام الاجتماعي بطيء التكوين بطيء النمو ، ولا يتوفر إلا لدى الناس الذين دربوا منذ طفولتهم تدريباً فعلياً على التفاعل مع الآخرين والعمل في الاتجاه النافع من الحياة . والمرء الذي يعمل في هذا الاتجاه النافع تجده شجاعاً واثقاً من نفسه ، يواجه صعوبات الحياة ويبذل جهداً في حلها ، له رفاق وأصدقاء ويتعلقون به وهو حسن الصلة بجيرانه وزملائه ، فهذا هو المعيار الثابت المؤكد .

وللمعاشرة أصول وبنود . وفي هذه البنود ما يجعلها حسنة لائقة :

١ ـ اعرف نفسك واعرف شريكك . وكلما زادت معرفتك بنفسك وشريكك ازداد حظك من النجاح .

٢ ـ أحب شريكك حب المودة والحرص على كرامته وصحته وراحته .

٣ ـ اجعل من شخصيتك وشخصية شريكك وحدة واحدة ، واجعل بيتك مستقلاً ما أمكن ، وليس المهم الاستقلال في المكان أو المنزل بل المهم إيجاد وحدة نفسية مشتركة بحيث لا تسمح للآخرين التدخل في شؤونكما الخاصة .

٤ ـ اعتن بصحتك وغذائك ورياضة جسمك ، إن التريض يجدد الجسم والنفس ويبعث فيهما إحساساً بالحرارة والسعادة . ولتكن لكما نزهاتكما الخاصة مهما تضخم حجم الأسرة أو كثرت المشاغل .

٥ ـ أهّلا نفسيكما للأبوة والأمومة ، ادرسا جيداً حقائق الحمل والوضع والرضاع وتربية الصغار وأشعرا أولادكما بأن وجودهم مرغوب ومطلوب .

٦ ـ ليتسلح كل واحد منكم بالحلم وسعة الصدر . أنتما شريكان وشركة الزواج شركة من نوع خاص وإذا كانت الشركة

العادية تحتاج إلى لباقة وكياسة ، فإن الشركة الزوجية أحوج إلى اللباقة واللياقة .

٧ ـ لا تهملا تغذية زواجكما . إن الزواج كالنبات يكون زاهراً وفواحاً وقد يصوّح ويصفرٌ وتذروه الرياح . إن الكلمات الطيبة والمجاملة والهدية في وقتها هي أهم ما ينفع لتغذية الزواج .

٨ ـ إذا قامت في وجهيكما صعوبات فتغلبا عليها بطلب العون والشورى من كبار السن وذوي الخبرة المخلصين والأقرباء .

٩ ـ إذا نشب بينكما خلاف فلا تقلقا ، إن الخلاف أمر طبيعي ولا خشية منه ، والمهم أن تضعا مبادئ لحل الخلافات وتركيز الأوضاع .

١٠ ـ ليتجنب كل منكما السيطرة وبسط النفوذ على شريكه وكذلك الملامة الحاقدة والتقريع .

وليـذكر كل زوج أن ثمـة عوامـل خطيرة تـؤدي إلى تـدمير الزواج هي الكبرياء والاستحواذ والتجاهل والظلم .

وإن ثمة أوهاماً يجب طردها وتجنبها أهمهـا الظن إن الجمـال والمال ينوب أحدهما أو كلاهمـا عن العواطف الإنسـانيـة أو الكلِم الطيب .

هـذه هي المحبـة وذاك هو مـا يُسمى بـالحب ، نعود فنكرر قولنا : إن المحبة الرصينـة تصعـد وتصعـد ، إنهـا تصعـد المنحـدر نفسه الذي يهبط عليه الحب المفتون .

ولهذا نقرأ في كتـاب الله تعـالى ﴿ ومن آيـاتـه أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمـة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الروم : ٣٠/٢١] .

الحياة في بطن الأم

جميع الأمهات يتذكرن بالتأكيد ذلـك الوقت الـذي شعرن فيه للمرة الأولى بأن طفلهن الـذي يتلهفن لمجيئـه يتحرك داخل

أجسامهن . لقد كان حتى ذلك الحين يُنظر إلى الحمل كظاهرة جسدية طبية تتجلى خصوصاً بأمور منغصة ومتعددة ، وإذا بالطفل يبدأ بالظهور بأنه حقيقة تنبض بالحياة . ولكنه في الواقع حينما يباشر التحرك في بطن أمه يكون قد أمضى وقتاً طويلاً يعيش خلاله حياته الخاصة ، بكل ما تنطوي عليه هذه الحياة من مميزات إنسانية ونوعية فريدة .

فمنذ نهاية الشهر الثاني بعد الإخصاب نستطيع أن نعتبر الجنين بمثابة كائن إنساني ، لقد استطاع أحد الباحثين الأمريكيين أن يلاحظ انعكاساً لا إرادياً واضحاً عند جنين يبلغ من العمر ثمانية أسابيع ونصف وقد أخرج من بطن أمه قبل الأوان على أثر حادث سيارة ، وقد لاحظ هذا العالِم الانعكاس اللاإرادي عند الجنين حينما كان يلامس بشعرة ناعمة فم هذا المخلوق الضعيف .

ومع ذلك فإن هذا الصغير ، وإن كان محمياً داخل جسم أمه بعناية إلهية رائعة فهو غير بعيد تماماً عن التأثيرات الخارجية . إن جريان دم الأم وجريان دم الجنين منفصلان بغشاء الجنين

هذا الغشاء الذي يطرح المواد السامة ويصفي العناصر الغذائية قبل أن تنتقل إلى الطفل . ولذا فإن الدم الذي يجري في أوردة الأم ليس هو نفسه دم الجنين ، وإذن فلا داعي لوسوسة بعض الأمهات فيقلن : « إذا تناولنا طعاماً صعب الهضم فإنّ ولدنا سيشعر حتماً بتلبك في معدته » .

وبالمقابل تبين لنا بعض الملاحظات بوضوح أن للأم تأثيراً كبيراً على طفلها من الوجهتين النفسية والجسدية ، وعلى هذا النحو فإن خفقان القلب قلب الطفل يزداد بسرعة بعد أن تصعد الأم الدرج إنه أمر طبيعي أيضاً أن يتغير انتظام ضربات قلب الجنين كما يتغير قلب الأم بعد أن تدخن الأم لفافة من السجاير ، ويكون معظم الأطفال أثناء الحمل سريعي التأثر بالأصوات ، فالأم الممددة في مغطسها ، قبل الولادة المتوقعة بشهر واحد تتلقى ركلة من صغيرها المقيم في داخلها ، وسبب ذلك أن قطعة معدنية قد صدمت المغطس وأرعبت الجنين بشكل واضح ...

إن العديد من النساء قد لاحظن أنفسهن بدقة أثناء فترة

الحمل وسجلن نشاطات الطفل المقبل : حيث انتفض الطفل بعنف لدى سماعه نفير بوق سيارة شديد ، وشعرن بضرب قوي من جهة البطن أثناء حفلة موسيقية . تقول إحداهن لقد استيقظ طفلي بسرعة وفجأة حينما نهضت من نومي مذعورة .

في مثل هذه الحالات تطرح الأمهات القلقات السؤال ذاته دوماً على العلم : إذا ثارت أعصابي وإذا انتابتني المخاوف أو انزعجت نتيجة أحلام مخيفة فهل يتحمل ولدي نتائج ذلك ؟ .

نعم بالطبع ، إن المسنات من النساء يعلمن دائماً الجواب الصحيح لهذا السؤال ، هنّ يعرفن هذا الجواب بالفطرة والإحساس التلقائي ، ولا يرين حاجة للرجوع إلى العلم ، لقد حدث منذ بضعة شهور انفجار غاز بسيط في أحد المنازل ، فصدم باب موقد الطبخ ساقي امرأة شابة فآلمها ، وهي حامل في الشهر السابع ذعرت هذه المرأة ومضت تشكو أمرها إلى بوابة البناية فقالت لها البوابة معزية : « ليهدأ بالك ، لا تهتمي كثيراً ، طبعاً سيولد الطفل المسكين واضعاً يده السوداء على

ظهره . ولكن الأطباء الجراحين في وقتنا الحاضر سرعان ما يزيلون هذا السواد !.. » .

ومع ذلك فمن الثابت أن التهيج النفسي للأم قادر على التأثير في الولد بصورة غير مباشرة . إن إفرازاً أكثر غزارة للغدد إذ يمر في دم الأم يترشح عبر غشاء الجنين وينجح أحياناً في التسرب إلى دمه حيث يؤثر بدوره في نشاط غدده ولم يقم الدليل حتى الآن على أن هذا التسرب يغير جذرياً طبيعة الطفل المقبل ولا على مدى هذا التغير . وقد أثبت بعض الباحثين الأمريكيين أن ستة أطفال كانوا ساكنين جداً وإذا بهم يظهرون هياجاً عصبياً بعد أن أصابت أمهاتهم صدمة عصبية قوية ، وقد احتفظوا بهذا الهياج العصبي حتى ولادتهم .

ولقد بينت بعض التجارب التي أجريت على عدد من الفئران أن فرقاً في المعاملة خلال الحمل يحدد فعلاً فوارق لا يستهان بها من السلوك أثناء نمو المواليد الجدد وقد لاحظوا أن الفئران الذكور الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة وأربعين يوماً ومئة يوم هم أكثر سرعة للتأثر وأشد قلقاً ، هذا إذا خضعت

أمهاتهم لمخاوف متوترة خلال فترة الحمل ، وعلى العكس من ذلك إذا حُملت هذه الأمهات كل يوم بالأيدي لمداعبتها بلطف وأثناء فترة طويلة أو إذا قمنا بملاعبتها ، فنلاحظ حينذاك أن صغار هذه الفئران هي أقل تعرضاً للمخاوف والقلق وأكثر جرأة من صغار بقية الأمهات ولكن مهما يكن الشكل الذي تفسر به نتائج مثل هذه الأبحاث ، فثمة شيء واحد أكيد وهو أن السلوك النفسي للأم لا يبقى دون تأثير على الطفل المنتظر ، وبالطبع ليس ذلك بذاك الشكل الساذج البدائي الذي يتصوره الأشخاص غير المطلعين على الموضوع ، فإذا كانت الأم تخاف من الأرنب البري ، فليس من الضروري أن يكون لطفلها شفتان مشقوقتان مثل فم الأرنب كما كانوا يقولون ، أما التردد كثيراً على المتاحف خلال فترة الحمل فليس كافياً حتى يصبح الطفل منافساً لملائكة بوتيشللي في جماله ! يؤكد أنصار التربية لفترة ما قبل الولادة ما يلي[١] :

يمكن التأثير بصورة إيجابية على الطفل الذي سيولد بعد

(١) الدراسة الوثائقية لمجلة Paris Match .

قليل بشرط أن تتحدث الأم عن أشياء جميلة ومنسقة ويجب أن تحافظ على اتزان مزاجها واعتداله .

ولكن نحن في غنى عن أن نضيع في متاهات أبحاث علم النفس النظرية .

ونكتفي أن نقول : إن المرأة التاعسة الشقية أثناء الحمل لا تستطيع أن تتحمل الانزعاج الجسمي كالمرأة السعيدة التي تتمتع بنفسية رائقة وتعيش في أحسن حال وانسجام والتي يبتهج قلبها كلما تصورت حصولها على طفل ، المرأة الأولى تعيش في قلق وتلجأ إلى التبغ والكحول والأدوية المنومة مما يكون له أثر كبير على الطفل . ومن الثابت أن العديد من الأمهات في وقتنا الحاضر ما يزلن قلقات خوفاً من آلام الولادة ونحن لا نستطيع أن نفهم كيف أنه ما يزال هناك عدد من الأطباء ومن الأمهات الذين لا يلجؤون إلى طرق الولادة بدون ألم (تقريباً) .

بعض الأمور حول الولادة بلا ألم

في عام (١٩٣٣) أوضح الإنكليزي (ج . د . ريد)

طريقة (الولادة دون خوف) وفي العام (١٩٥٥) طرح الفرنسي (ف . لاماز) في باريس فكرة (الولادة دون ألم) وذلك بالمعالجة النفسية الوقائية . وبواسطة هذه الطرق وعن طريق الإعداد النفسي تصل النساء الحاملات لفترة الولادة بشكل طبيعي تماماً ، دون تخوف وتصور ساذج ، بل تحس بفرح وابتهاج ، ونحن نرى أنه يجدر بأمهات المستقبل مراجعة الأطباء الاختصاصيين (بأمراض النساء) بشكل منتظم ، على أن يسمحوا لهن بالاستفادة من هذه الطرق التي لا يمكن تعلمها بالقراءات البسيطة . أمّا عن العلاقات المقبلة بين الأم وطفلها فإن الولادة دون ألم ، تحقق شروطاً أولية ملائمة لا توفرها مطلقاً الولادة التي تتم تحت التخدير أو خلال الآلام المبرحة التي ترافق (الولادة الطبيعية) إنه لإحساس عذب للمرأة حينما تستطيع ملاحظة الطريقة التي ستلد بها طفلها .

وهناك حجج مختلفة تدفع بعض النساء والرجال إلى رفض الطفل المكون في بطن الأم سواء أكان هذا الرفض عمداً أو بصورة لا شعورية . إن العلماء النفسيين والأطباء الاختصاصيين

بأمراض النساء ، وأطباء الأطفال ، وأطباء الأمراض النفسية ، يجمعون اليوم على القول بأن هذا الرفض المقصود أو غير المقصود يتعلق بجميع مشكلات نمو الطفل وتربيته ، وذلك أن الموقف الذي يتخذه الوالدان إزاء الطفل يرتد إلى تخيرهما الإنجاب ، هذه المسألة تستحق أن نتحدث عنها لأننا نريد الوقوف على جلية الأمر فيها ، حتى لأولئك الذين يقولون وهم واثقون من أنفسهم : « لم أرفض ولدي مطلقاً لا عمداً ولا بغير عمد وأنا متأكدة من هذا القول تماماً » .

قبل الولادة المتوقعة بزمن طويل ، نجد العديد من الوالدين الذين يجهزون غرفة الطفل ، فهم يشترون سريراً صغيراً جميلاً وعربة سهلة الاستعمال ، وقد يشترون أيضاً مهداً ، لأن عدداً كبيراً من علماء النفس يؤيدون استخدام المهد .

ويبدو أن المواليد الجدد يشعرون داخل المهد بانزعاج أقل لفراقهم بطن الأم ، وفي الواقع يقوم المهد لفترة من الزمن مقام « هدهدة » الوالدة . يقول والد المستقبل يجب أن ينام طفلنا براحة وهناء ، ولكن حينما يكون الطفل داخل أفضل سرير

فإن جسمه هو الذي يستريح . ترى ، ما شأن السرير الذي أعده الوالدان لنفسية الطفل ؟ هل يفكر الناس في هذا ؟...

ولتربية هذا الطفل ولنموه فإن مواقف الوالدين أهم بكثير من تلك النصيحة السليمة التي تمتدح غذاء الطفل وسرير الطفل وملابس الطفل و (بودرة) الطفل .. .

وهذا الموقف يتخذ شكله الواضح في الوقت الذي تصبح المرأة فيه واثقة من أنها ستصبح أماً ، هذا الوقت الذي يحدد بداية فترة الحمل المزعجة . فلم تعد ثياب الأم تصلح لها ، والطبيب يمنع الوالدة من التدخين ، وهو يحذرها من تناول بعض الأدوية والأشربة ، أما الزوج فهو لا يراعي أغلب الأحيان وضع زوجته ، وقد يجد أيضاً منذ ذلك الحين بأن لديه أعماله المسائية في مكتبه .

ومن المؤسف أن كثيراً من الرجال يتذرعون بمثل هذه الحجج الواهية .

فمن الطبيعي جداً للمرأة الشابة أن تفكر قائلة : كم كان

أفضل ألا أنتظر طفلاً ! إنه رد فعل عادي وإنساني لا يمكن لأحد أن يلوم الأم على شعورها بهذا الإحساس ، ومع ذلك فإنها تجد نفسها في أغلب الأحيان مدانة من قبل أقسى القضاة ألا وهو ضميرها الخاص . إنها تكبت هذا الانزعاج الذي شعرت به لهذا السبب الذي لم تعبر عنه : « كيف استطعت فقط التفكير في ذلك ؟ هل أنا عديمة الشعور ؟ أنا أشعر في قرارة نفسي بغريزة الأمومة ؟ » .

وتصبح هذه المشاعر مكبوتة في اللاشعور ، وهناك تقوم بدور الأشباح وتثير القلق ، ففي أحلام العديد من أمهات المستقبل يعود هذا الإحساس . فمن الممكن أن يحلمن بأنهم يلدن طفلاً شاذ الخلقة وأن المولود الجديد في خطر ، أو يحلمن بشيء من هذا النوع ـ إن المحللين النفسيين يفسرون هذه الأحلام على النحو التالي :

الضمير يعاقب هؤلاء الأمهات على رغباتهن الخفية ، أنت ترفضين طفلك لأسباب تتعلق بالراحة . ستكون النتيجة أنك ستفقدين طفلك . هذا ما كنت تريدينه !

الحمل غير المرغوب يؤدي إلى انحرافات لا حد لها ولا عدّ . يبدأ الجنين يشعر بالانكماش والوحشة أول الأمر ثم يلجأ إلى السلوك المضاد والعدوان أو المرض النفسي : « الآن يعيد العلماء النظر إلى جذور الاضطرابات العقلية والعاطفية والاجتماعية يعثرون على هذه الجذور في الحياة الجنينية غير المستقرة » وفي وسعنا أن نقي الأمهات والأطفال مؤونة تحمل الكثير من الهموم والقلق ، وذلك بشرحنا في وقت مبكر للنساء الحوامل العلاقات بين العواطف الإيجابية والسلبية أو « التناقض العاطفي » الذي يجزئ النفس . وها نحن نشرح ذلك في أربع مراحل :

١ ـ طبيعي ألا تكون ظروف الحمل ممتعة للأم في كل الأوقات .

٢ ـ طبيعي أن تشعر بعض الحاملات بشيء من القلق بسبب الحمل .

٣ ـ ولكن ليس طبيعياً أبداً أن تستنتج الأم الحامل من ذلك أن تتخلص من الحمل لهذه الأسباب .

٤ ـ ومن المفيد لكل أم حامل أن تعلم أن انقباضها المستمر بسبب الحمل يفضي إلى آثار سيئة تؤذي الجنين وقد تسبب له الانحرافات النفسية والاجتماعية .

هذا ما يلاحظه العلماء التجريبيون .

الحالة النفسية للزوجين في فترة الحمل

مقدمة :

ليس تكوُّن الجنين في بطن أمه أمراً جسدياً فقط ، وإنما هو أكثر من ذلك ، إنه أمر تكاملي ، ونقصد بذلك أن لشخصية الزوجين وحياتهما النفسية والمزاجية وتفاعلهما مع بعضهما ، لكل هذا أهمية كبيرة في تكوين الجنين وسلامته وتوازنه الشخصي ، وسيتضح معنا شيئاً فشيئاً أن انفعالات الأبوين (وانفعالات الأم بوجه الخصوص) تلعب دوراً هاماً في إحساسات الجنين وسلامة أجهزته ، فإذا كانت حياة الزوجين قائمة على التفاهم والمودة ، وظل كل شيء حسناً خلال تكوّن الجنين وولادته ، وإذا توفرت لدى الزوجين رغبة مشتركة ومستقرة بالحصول على

مولود ، وحسن استقباله بالرضى والتقبل ، وكان لديها وعي تام للمرحلة وما تقتضيه من مطالب فإنها يعيشان مع بعضها مغامرة حلوة تزيدهما اقتراباً من بعضها وتجنبها كل المتاعب والصعوبات ، وتهيء للجنين إمكانات النمو السليم ، فتغدو فترة الحمل بنتيجة هذا كله ، خفيفة الظل مقبولة ومليئة بالهناء والأمل .

الشهور الثلاثة الأولى من الحمل (غموض المشاعر)

إذا كان الزوجان يرغبان أن يكون لهما ولد أو أولاد ، فإن رغبتهما هذه تصبح باعثاً لأعظم فرحة تغمر حياتهما ، ومن شأن هذه الفرحة أن تنشئ علاقات جديدة بين الزوجين ، ومن خلال هذه العلاقات سوف يتضح لكلا الزوجين أن الحب والتفاهم يصنعان أبعاداً جديدة لحياتهما المشتركة ، **فالزوجة الراغبة بولادة طفل حالما تتأكد أنها أصبحت حاملاً سوف تشعر شعوراً عميقاً بتبدل معنى الحياة** الزوجية وسوف ترى أن حياتها الشخصية بل وعلاقتها بزوجها قد غدت أكثر حيوية وطرافة ، وهنا نجد أن الحوامل تتوزع على نوعين رئيسين :

١ ـ نوع الحوامل الراغبات بالأطفال .
٢ ـ نوع الحوامل غير الراغبات بالأطفال .

الحوامل الراغبات بالإنجاب :

إن المرأة التي ترغب بمجيء مولود لها تعيش حياة مطمئنة راغدة بغير قلق أو تساؤل ، يقول الأستاذ (ريفولت دالون) : « اعتاد علماء النفس على تسمية فترة الحمل (بالأزمة التكاملية) أي أزمة تنسيق عناصر متعددة ووظائف متنوعة ، وهذا يعني أن الحمل وإن كان ظاهرة طبيعية ومقبولة عند الراغبات بالإنجاب ، إلا أنه في الوقت ذاته ظاهرة عصبية مليئة بالاحتمالات ، وصحيح أن لها طابع التوقيت ، ولكن إذا كان كل شيء على ما يرام وجدت لدى خروجها من الأزمة أمام ذات قد اغتنت بتجربة عاشتها » وخلال الشهور الثلاثة الأولى من تخلق الجنين يكون غموض المشاعر عند الأبوين قوياً جداً .

فالأم التي لم تعتد على وضعها الجديد ، تدرك صعوبة ما يحدث لها ، وفي وسعها منذ البداية أن تتخذ موقفاً محدداً لنفسها وهنا إما أن تعيش فترة الحمل بحيوية ونشاط وإما أن

تحيا هذه الفترة في خمول ومعاناة . والمرأة النشيطة أثناء فترة الحمل حين تضطلع بأعباء وضعها وتقرر أن تحضّر دروساً وتدريبات على الولادة بلا ألم ، وتتعهد بأن تكتسب ما يجب عليها أن تكتسبه ، سوف تكون ولادتها أقرب إلى العملية السهلة والإرادية العاقلة .

الحوامل غير الراغبات بالإنجاب :

على الرغم من المعارف والخبرات التي تقدمت واغتنت في موضوع فيزيولوجية الإنجاب ، ومع التقدم الذي أحرزته وسائل الحمل ، فإنه بمجرد حدوث أدنى تأخر في دورة المرأة الشهرية يستحوذ عليها القلق ويستبد بنفسيتها ، وقد يجعلها تسلك سلوك النعامة فتقول لنفسها : « لا بد أن هناك أسباباً خاصة قد أدت إلى تأخر الدورة ، كالتعرض إلى أشعة الشمس مثلاً أو بسبب المشي في رحلة ، أو التعب » وهكذا تترك النساء الوقت يمضي دون استشارة الطبيبة المختصة ، كما لو أن المعرفة تصنع الخطر وأن الجهل بها يزيل الخطر ويبعده !

وهناك على وجه العموم أسباب كثيرة تدعو إلى عدم الرغبة بالإنجاب .

ولعل أشد ما يدعو إلى القلق عند المرأة شعورها بأن جسدها (وهو شيء هام لدى الكثيرات) يتفلت من أي انضباط وشعورها بأنها تتورط في حمل هي ترفضه في قرارتها ، ولهذا فكثيراً ما تتساءل : « هل ينبغي عليها أن تقاوم الأمور وتتصدى لها وتتدخل في مجراها ، وهل بوسعها أن توقف مجريات الأمور ؟؟

إن عدم رغبتها بالإنجاب على الرغم من أنها تُصحب بالقلق الحاد الذي أشرنا إليه ، إلا أنها قد تلجأ بالضرورة إلى الإجهاض ، ومع ذلك فإن معظم الأمهات اللواتي تم حملهن وأصبحن أمهات سعيدات بالفعل قد فكرن بالإجهاض المتعمد ، وخلال فترة شبه طويلة ، هذا ومن الأهمية بمكان أن تبذل المرأة في بداية الحمل غير المرغوب ، جهداً كبيراً تستوضح فيه الأمور كي تعرف ما تريده بالفعل ، وذلك كي ترى وتبصر بوضوح ، قرارة نفسها ولتتفهم أيضاً أو تتبين موقف زوجها .

إن هذا الجهد الخاص بإيضاح الأمور سوف يساعدها فيا بعد وبكل تأكيد على ألا تجد نفسها مجدداً في حالة صعبة تعاني منها .

وحين لا تكون الأم ناضجة بالقدر الكافي نرى أن دوافع رفض الإنجاب معقدة ومتنوعة عندها ، وهي ترتبط بشخصية كل امرأة على حدة ، والمعروف أن المرأة الشابة قد لا تحرص على الحمل فور زواجها ، وخاصة إذا كانت تحس أنها لم تصل إلى حيث تعتبر ناضجة بالقدر الكافي ، فهي ليست مستعدة للحمل والولادة ، وليس زوجها معداً بالقدر الكافي كي يضطلع بهذه المهمة . هناك أسباب كثيرة تدعوها إلى التريث : فالشقة الضيقة محصورة والأثاث الخشبي لم ينجز كله والثبات في العمل لم يتأكد بعد والراتب منخفض ومحدود . ويمكن أن نضيف لكل هذا تخوف الزوجين الشابين من فقدان حريتهما ومن أن يحرما من الاستمتاع بأوقات الفراغ . وفي بعض الأحيان إذ تشعر المرأة الشابة بأنها ما تزال قريبة من سن المراهقة فإنها لا ترغب في

تغيير وضعها وتصبح في سن الراشدات بحيث تتشبه بشكل أمها .

إن المرأة في ديار الغرب هي صاحبة الشأن في هذا الأمر فهي غالباً ما تقرر رفض الطفل ، وهي تؤكد هذا الرفض بقوة تقريباً ، وتشعر بأنها وقعت في الفخ ، ولكنها في الوقت نفسه تحس بشيء من الشعور بالذنب ومع ذلك فإن الكثير من النساء اللواتي عرفن هذا الإحساس بالرفض غدون فيما بعد أمهات محبات بل وناجحات في الأمومة .

إن الرغبة في الحصول على طفل ليست من واجب المرأة نحو زوجها أو نحو المجتمع ، إنها حاجة يجب أن تأتي في موعدها المحدد كما يشاء الله تعالى ، فإذا لم تشعر المرأة بهذه الحاجة عند حمل غير منتظر فمن الطبيعي أن تتمرد وأن تثور ، تدل التحقيقات في أوربة على أن عدد حالات الحمل المرغوب فيه حقاً في السنة الأولى من الزواج ضئيل جداً .

في مثل هذا الوضع يجدر بالمرأة أن تكون لديها القدرة على

أن تـزيـل بـوعي كامـل قلقهـا المتفـاقم وأحرى بهـا أن تعبر عن اضطرابها وقلقها علماً أنه لا يجديها نفعـاً أن تشعر بـالـذنب . إن الرغبـة في الحصول على طفل تـأتي تقريبـاً دائماً على نحو مختلف وفي أوقـات مختلفـة بحسب السن والشخصيــة وظروف المعيشــة ويجب على الزوجين أن يقررا ما إذا آن الأوان للاستجـابـة لهـذه الرغبة أو عدمها .

حالة المرأة أو الزوجة التي أصبحت أماً عدة مرات

إن المرأة التي تـزوجت منـذ زمن بعيـد والتي أصبحت أمـاً عدة مرات من الجائز أن يصيبها الأسى لدى معرفتها أنها حـامل بطفل جديد لا تتوقعه إنها تقول : « لقد تقـدمت بي السن كثيراً ولن يكون لدي الشجاعة كي أعود إلى الحمل ثـانيـة هـا هم أولادي قد كبروا وعددهم قد أصبح كافياً . وإنهـا تفكر بـأنـه حـان لهـا أخيراً أن تعيش حياة أكثر راحـة وأقل تعبـاً وإذا بـالأمور تعود من جـديـد فكيف السبيل إلى تبليـغ الكبـار بـذلـك ؟ وكيف سيتحمل الكبار تشويش حياتهم اليومية من جديد ؟

في الواقع حينما يقبل الطفل الجديد في النهاية يجري كل شيء إجمالاً بسهولة أكثر مما كانوا يتوقعونه ، والأولاد الكبار يستطيعون في هذه المناسبة أن يكتشفوا في والدتهم أماً كانوا قد نسوها ، وهم قادرون على مساعدتها والشعور بشيء من الفخر بها ، وحتى إذا كانت المرأة تبدو منقبضة لنبأ الحمل فإنها في قرارة نفسها غالباً ما تكون مسرورة بهيجة .

ولكن مهما كان شأن هذه الحالة فإن رفض الحمل أو قبوله مسألة هي من شأن الزوجين فالقرار يخصهما وحدهما وذلك ضمن قواعد الشرع .

رسالة أم إلى ابنتها العروس

كيف تستمر قيم الأنوثة في البيت والحياة

بالأمس كنت تخطرين في ثوب زفافك الأبيض الجميل ... كم كنت رائعة يا ابنتي .

لقد كانت أمنيتي أن أراك عروساً لرجل يحبك ويرعاك ، فهي أمنية كل أم يا صغيرتي . وتحققت أمنيتي وشعرت بالسعادة تغمرني ولكنني أحسست ـ في الوقت نفسه ـ بأن يداً قد امتدت إلى صدري تنتزع مني قلبي ...

كان فراقك قاسياً على نفسي ، ولكنني لم أشأ أن أفسد عليك أسعد لحظات حياتك فكتمت ألمي وحبست دموعي ، ورحت أشق طريقي وسط زحام المهنئين لأصل إليك ، وأضمك إلى هذا الصدر الحنون ، الذي طالما أسندت إليه رأسك الصغير في طفولتك وفي شبابك ، كلما أرهقتك الحياة بمشكلاتها الصغيرة والكبيرة .

لا أدري بماذا أصف لك مشاعري يا صغيرتي ، فقد قضيت الليالي الأولى لفراقك ساهرة أتأمل صورتك .. كان كل شيء من حولي يذكرني بك ..

أنت معي دائماً يا حبيبتي غرفتك التي كنت تنامين فيها ، ملابسك التي هجرتها عندما نما جسمك وكبر .. مكتبتك الصغيرة التي طالما قضيتِ فيها الساعات الطويلة تقرئين وتطلبين العلم والمعرفة .. صورتك في ألبوم الأسرة ، وهي تسجل مراحل حياتك ، في طفولتك وصباك وشبابك ، إنني أراك في كل شيء حولي ، وأسمع صوتي يملأ أذني في كل لحظة في صحوي وفي نومي . أنت معي دائماً يا حبيبتي ، وأنا معك بقلبي وروحي ، وإن بعدت المسافة بيننا .. فأنت مني وأنا منك ، وعزائي في فراقك أن أعلم دائماً أنك مبتهجة ..

اكتبي لي واحكي عن حياتك وعن زوجك وعن بيتك الجديد ، ولا تضني علي بالكتابة أبداً .. أما أنا فسوف أكتب وأكتب ، ولن أمل الكتابة إليك ، ولكن فيمَ أكتب يا تُرى ؟..

جاء في رسالة أم : بالأمس كنت أقرأ كتاباً يحمل رسالة من أم إلى ابنتها بعد زواجها ، وقرأت الرسالة الطويلة ، فإذا بها تحكي حياتها وتجربتها في زواجها ، ورأيتُ أن أكتب إليك بدوري .. إلى ابنتي وصديقتي الصغيرة .. أحكي لها جانباً من حياتي الخاصة وتجربتي مع ذلك الرجل الكريم الذي اختارني زوجة له وشريكته في حياته ، وأماً لأطفاله منذ أكثر من ربع قرن ..

لقد عشتُ يا ابنتي في زمان غير زمانك .. ونشأت في بيئة تختلف عن البيئة التي نشأتِ أنت فيها بين والديك وإخوتك وزملائك وأساتذتك في الجامعة ... فأنا لم أنل من القيمة التي نعمت بها أنت إلا بمقدار ما كانت تسمح به تقاليد شعبنا يومذاك .. فقد كان أبي رجلاً محافظاً ، وكذلك كانت أمي ، شأنها في ذلك شأن كل الوالدين في ذلك الجيل الذي أنتمي إليه ، ولعل هذا هو السبب في أنني لم أكمل تعليمي الجامعي ، فلم يكن الالتحاق بالجامعة شيئاً هيناً ولا مألوفاً في ذلك الوقت ...

ولكنني كنت فتاة نشيطة مثلك الآن تماماً ، ولو لم أكن أعرف عن حقائق الحياة شيئاً إلا بمقدار ما كانت تحكيه لي أمي ، تلك السيدة الطيبة القلب التي لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة ، ولكنها مع ذلك أحسنَتْ تربيتنا ، وسهرت على راحتنا ، فنشأنا نشأة دينية مصانة ، وتعلمنا منها كيف نميز بين الخير والشر والصواب والخطأ ... والحلال والحرام .

شيء واحد كان يثيرني ويبعث الضيق إلى نفسي ، هو بقائي في البيت في انتظار ذلك القادم الذي سيطرق بابنا طالباً يدي ، وكانت أمي تقول لي دائماً :

« لقد أصبحت فتاة رائعة ياابنتي ، وبلغت مبلغ النساء ، ولن ينقضي وقت طويل حتى أراك تزفين إلى رجلك ! » .

مشكلتي مع الزواج : كانت أمي تغضب ـ كلما رأتني أتقاعس عن الواجبات ـ « إنني أشفق عليك من التجربة ياابنتي ، وإن أخشى ما كنت أخشاه أن يكتشف زوجك بعد الزواج ، أنك لا تصلحين لأن تكوني زوجة وربة بيت محترمة .. » .

وقد كنت أحاول أن أتعلم منها ، ومن أجلها ، حيث كان تفكيرها في حياتي يستغرق أيامها في حياتي وفي مستقبلي مع زوجي ، فكنت أرقبها تطبخ الطعام لنا ، وأعاونها في أعمال البيت ، وأجلس لأتعلم كيف تحيك الملابس وترفو الجوارب ، وتصنع أطباق الحلوى اللذيذة التي كان يحبها أبي ..

ولكنني كنت أشعر وأنا بجوار أمي في البيت بما يشعر به الطفل الصغير الذي يقف أمام ساحر ماهر يمسك بيده عصا سحرية ، لا يكاد يلمس بها شيئاً ، حتى يحيله إلى صورة جميلة براقة تخطف البصر وتثير الإعجاب .

كانت أمي عندي أستاذة لتلميذة خائبة ، تبلد ذهنها وتحجر ولبستها الحيرة ، إلى أن جاء اليوم الذي ظلت أمي تنتظره طويلاً وتقدم والدك لخطبتي وانقضت فترة الخطوبة ، وأنا ما زلت في محاولاتي اليائسة . كان هدفي أن أتعلم كيف أسعد هذا الرجل ، لكي أرضي أمي على الأقل أول الأمر ثم أرضيه وتزوجت وابتدأت التجربة .

وتزوجنا ، وانتقلتُ إلى الحياة مع هذا الرجل الغريب الذي لم أره ولم أعرفه جيداً من قبل وبدأنا حياتنا الزوجية ، وغدونا شيئاً واحداً ، يسعى كل منا من أجل الآخر لأن يتعلم يومياً ويتفتح على الحياة المسؤولة .

ومرت الأيام الأولى على زواجنا ، كما تمر بكل عروسين ، وانتهى شهر العسل التقليدي وشرعنا نحيا في شهر عسل آخر أدوم .

كان لابد لي أن أبدأ ، فهناك عمل كبير ينتظرني ، ولكن من أين أبدأ وكيف ؟.. ولم تطل وقفتي ، ولم تستمر حيرتي كثيراً ، فقد طالعتني فجأة صورة أمي وتذكرتُ صولاتها وجولاتها في البيت ، وفي المطبخ ، حيث كانت تقضي الساعات الطويلة في تنظيف البيت وترتيبه ، وفي صنع أطباق الطعام الشهية ، وأنت تعرفين يا ابنتي أطعمة الشام ومطبخ الشام ولذيذ الطعام .

وشمرت عن ساعدي وأسرعت إلى المطبخ أكوّن فيه خبرتي

ومهارتي ، واستوعبني عملي بين أواني الطعام وحرارة الموقد ، ولا أدري بالضبط ماذا فعلتُ في تلك الأيام ولا كيف بدأت ، كل ما أذكره أنني أحسستُ فجأة بأنني تحولتُ ، وبدأت أتحول إلى عملاق ، وأن العصا السحرية قد انتقلت من يد أمي إلى يدي أنا ، وتحققت المعجزة وتمنيتُ لو أن أمي كانت تقف بجواري ، لترى ماذا صنع الزواج بابنتها .

أول وسام :

وحان موعد عودة والدك من عمله ، فأسرعت أعد مائدة الطعام التي ملأتها بالأطباق الشهية ودعوته إليها ، فجلس وجلست ، ولكنني لم أذق من الطعام شيئاً فقد كان همي موجهاً إلى معرفة الأثر الذي سيتركه الطعام على وجهه ، وراح يأكل بشهية ويمدح ما أكل ، حتى إذا فرغ من تناول غذائه ، قال والسعادة تملأ وجهه العريض « وأنتِ أيضاً طاهية ماهرة فوق ما اكتشفتهُ في شخصيتك الحلوة وكانت هذه العبارة أول وسام أفوز به ولن أنساه » .

... ومرت الأيام ، وجاءت أمي تزورني يوماً ، وما كادت

تدخل بيتنا ، حتى وقفت مشدوهة فاغرة فاها في ذهول ، لم تصدق أن هذا البيت الجميل قد صنعتُه أنا في شهور ...

تعلمت أشياء وأشياء :

قلت أحدث أمي ـ التي كانت تخشى علي من الفشل ـ لقد اكتسبتُ منك ياأمي الشجاعة بالإضافة إلى المهارة فملكت قلب زوجي ، ذلك الشهم الذي راح يؤكد أنني ذكية ونشيطة ، وأنني جديرة بأن ألقى التوفيق من الله وكم استغرب ممن يدّعون إن العمل في المنزل سخيف ولا يستحق الاهتمام ... أو أن العمل خارج المنزل أبهج أو ألطف من العمل العظيم في داخله ... أظن أن هؤلاء لا يعرفون أو لا يبالون بقضايا إسعاد الرجل وتوفير مطالب الجميع لي وللأولاد وكان علي ياابنتي أن أداري الأمور ، وأصرف المال بحساب دقيق ، فلا أبدد شيئاً ولا أنفق ليرة إلا فيما يتفق مع راتب زوجي ، ونجحتُ لا في تدبير بيتي فقط ، بل وأن أقتصد وأقتصد ، فراح زوجي يضاعف من همته ويزيد من إتقان أعماله ليكافئني كما قال وارتقت وظيفته في عمله ، وأسألك الآن هل خطر ببالك ياابنتي أن أمك تمشي مسافة كيلومتر أو

أكثر إلى السوق المركزي لتشتري الحاجات من هناك بنصف الثمن ؟؟..

المهم أن تعلمي أنني وفرت من مصروف البيت مبلغاً طيباً لن أتحدث عنه الآن ، بل سوف أفاجئه به في نهاية العام المقبل لأدفع القسط الأول من ثمن السيارة الصغيرة الجديدة التي تناسبني وتتفق مع أوضاع أبيك ، ياابنتي ، أبيك الذي وفقه الله فأصبح مديراً مسؤولاً في عمله ... بعد ذلك . وقد صارحني ذات يوم فقال : إنني أتقدم وأرتقي في عملي لأنني مرتاح في البيت وأجد الهناء الذي تصنعينه لي ...

هكذا بدأت حياتي مع والدك ياابنتي ، وكانت حياة مليئة بالعمل اللذيذ والتألق المفرح ... وتخامرني بين الفينة والفينة فكرة تجعلني أقول لنفسي « هل عملي خارج الأسرة ـ فيما لو خرجت ـ يساوي توفيق الزواج وتألقه . لقد كان علي أن أشعر زوجي أنه ليس وحده في العمل وأنه أصبح مع أفراحه المنزلية قميناً بالصعود إلى القمة ، وكنتُ أؤكد له أنني زوجة وصديقة وأم صالحة لأطفاله كان الإخلاص طابع حياتنا ، ويغمر

مشاعرنا ، ولكن ليس معنى هذا أننا لم نختلف البتة ، بل اختلفنا كثيراً واحتد الخلاف في بعض الأحيان ، ولكننا لم نترك لهذا الاختلاف فرصة لتعكير صفو حياتنا ، وتقديرنا لبعضنا ، كنا نحرص على ألا نبيت ليلة واحدة قبل أن نصلح الأمور التي تنازعنا فيها ، ونحسم شؤونها ... ولم نكن نسمح لأحد أن يسمع ما بيننا أو يتدخل في حياتنا .

لم أفرض عليه نفسي ذات يوم :

كم أبذل من الجهد والوقت كي أفهم زوجي ، وأسعى لأفهم كل ما يطرأ عليه ، أو ينغص عليه حياته ، وأقدر أحاسيسه ، وأحترم صمته ورجولته ، وحين يضحك كنا نضحك معاً فيتضاعف سرورنا ببعضنا ، وأبكي لآلامه ومتاعبه وتنغيص حياته ، ثم أحاول بعد هذا أن أخفف منها وأشعره أن في حياة الإنسان أي إنسان ضعفاً ما وألتمس معه الأعذار للناس ، وكلما أكدتُ له تفوقه أكد جدارتي ورجاحة فكري . لم أحاول أن أفرض نفسي عليه فإذا شاء أن يخلو إلى نفسه أو يستمع إلى الأخبار ، تركته في هدوء ، وإذا أحب أن يشركني في علاج

مشكلة تعسَّر حلها وضعتُ نفسي في خدمة قضيته ، وأبدأ بأن أصغي إليه ، ثم نفتش عن الحل ، وما أكثر الحلول وما أبهجها حين يكون المرء متفرغاً رائقاً ويعرف كيف يفهم الحياة ، كان التعامل بالحسنى شعارنا فكان أبوك يقول : « النزاعات والصراعات لا تحل الإشكالات » و « إن الانفعال يخلق الانفعال » لم أشعره يوماً أنني رقيبة عليه أو متتبعة لأخطائه ، بل كنت أجعله فقط يحس بوجودي إلى جانبه ، ولم يحدث يوماً أن قلت له : « أنت مخطئ » ، ولا هو قال لي ذلك في يوم من الأيام ، كنت أتركه حتى يشرح وجهة نظره ، ثم أبدأ كلامي معه بأن أؤيده فيما يذهب إليه ، وحتى لو كنت أعلم أن في رؤيته خطأ ، ثم أحاوره بعد ذلك مبدية رؤية ثانية وثالثة ، وكثيراً ما كان يغير رأيه ويأخذ بآراء لم تخطر على باله ... أول الحوار .

هكذا عشت حياتي مع والدك يا ابنتي أسعى لأبني معه بيتنا ليكون جنةً على الأرض ، وكنا نشعر معاً أن المهم ليس في

الفوز بالآخر ولكن المهم أن يحتفظ كلانا بصاحبه بعد أن فاز به ...

وتقبلي بعد هذا أطيب تمنياتي وأحلى توقعاتي لكِ بالتوفيق . وما التوفيق إلا بالله .

والدتك

هكذا كانت الأمور[1] ...

الفصول الأربعة

إنها ماري فونتان

الربيع

الربيع أول فصول الحياة
والعذراء أول مراحل الحياة

يحب الرجل المرأة مكتملة الأنوثة . لكنه لا ينسى فتنتها وهي عذراء ، إنه عالم الأحلام الذي تحيا فيه البنت البريئة التي لم تعرف الدنس عالم الأحلام يستمد منه الرجل فضائله .

---

(١) نقدم إلى الأصدقاء القراء صورةً من كتابٍ رقيق لفتاةٍ لم تكتب غيره في أوائل القرن العشرين بفرنسا .

وتستمد منه الحضارة ميولها وقيمها .

صفاء الروح ـ العفة ـ الخجل ـ الرقة والبراءة ـ الطهر ـ أَلَقُ الإيمان ـ الشرف والصدق والاستقامة ـ النبل والأمل والمستقبل بكل أمانيه .

كل هذه الفضائل تصنعها الفتاة العذراء وتنبلج في ربيع حياتها . ربيع الأحلام . إن الرجال يعلمون أنها مجرد أحلام ، ومع ذلك فنحن نؤمن بها ، ونحنُّ إليها ولا نستطيع العيش من دونها .

كيان العذراء البكر الطاهرة هو الذي أوحى للبشر بالفضائل .

هذا الكيان البكر الطاهر هو الذي روّض رجل الغابة ، وعلَّم الإنسان الشهامة والنجدة والفروسية .

نشيد الفارس : كل فتاة في العالم تفتش عن البطل . تنشده في أعماق نفسها في قصائد الشعراء ، في خيالات المراهقة

وأحلام الأطفال في المستقبل المشرق ... وهي تعلم أنها مثل المنجم الزاخر باللآلئ والكنوز .

لكن الرجل الظريف طيف من الأطياف ، وهم رائع ترسمه وتزينه أحلام البنات ومع ذلك هي لا تنفك تنتظره وتتطلع إليه وتبحث عنه فلماذا ؟...

لماذا تغرر بها الحياة . لماذا تُدخل في روعها أن من واجبها ألا تسلم جمالها وعفتها إلا للرجل النقي . لماذا ؟

ذلك لأن الزواج سيجعل من العذراء أماً ، وهي تطلب رجلاً موفور الرجولة والقوة لينشئ الأسرة ، ويقيم صرحها ، ويحسن الدفاع عنها وحمايتها .

إنها تطلب في الرجل أعظم ما في الدنيا . جمال الروح والمال والقوة ، وهي لا تريد أن تضحي بواحدة من هذه القيم .

إن الفارس الشهم يجمع هذه العناصر ليقدمها لها في شكل باقة . وهي تودُ هذه الباقة كلها ولا تضحي بواحدة منها .

هـذا هو السر في أن المرأة أقوى من الرجل وأضعف منـه في آن واحد .

إنها أقوى من الرجل في طموحها وقوة تعلقها .

ولكنها أضعف وأكثر تعاسة لهذه الأسباب .

إنني أعجب بـالرجـل ولكنني أحب المرأة ، أحبهـا لأنهـا في جحيم اليـأس ، ومرارة الأيـام وشقوة الظروف وذل الشيخوخـة لا تقطـع الأمـل ، وتظـل تبحث عن الرجـل في صمتهـا وانتظارها .

نشيـد العـذراء : لمن أقـدم حيـاتي ؟؟.. إن قلبي جوهرة لم يقـع على بريقهـا بصر مخلـوق ، ولكنني أود أن أقـدمهـا لـك يـا حبيبي . الحنـان يهطل من فؤادي كالمطر ـ الوفـاء يفيض من جوانحـي كسيل مجنون . التضحية تصفّر في أذني كالريح العاصفة وتـدفعني إلى أعلى الجبل فـأواجـه المـوت ولا أرتعـد ... إن دمي ليتوق إلى الغناء في ذاتك

إن كنزي ليتوق إلى التبعثر عند قدميـك ، فـأين أنت ومن

تكـون ؟.. بحثت عنــك في كل مكان طفتُ في أرجــاء الأرض أفتش عنك .

ولكن أتراك تقدرني حق قدري ، هل ستـدرك مجـد الثروة التي حميتُها لـك ، آه لشـدة مـا أخشـاك ، ومع ذلـك أنـا أفتش عنك .

الصيف :

عالم الزواج والأمومة

بين عشيـة وضحـاهـا تتفتح أكمام الزهرة ، وتتجـه في وثوق وأمان صوب الشمس ، تختفي الفتاة وتنهض المرأة أشد مـا تكون قوةً وأصالـة ، تشعر بهـذا الـذي يجري في نفسهـا وجسـدهـا وفي نظرة الناس إليها ، فتدب إليها النشوة وتدرك فجأة أن سلطانها عظيم ، وأنها أصبحت شيئاً لا غنى عنه .

لقد أعطت الرجل أعز ما تملـك ، ولهـذا ترى أن من حقهـا أن تطالبـه بـأغلى مـا يحب ، وتبـدأ ببسـط سلطـانهـا على الجميع وتشرع في مصادرة حرية زوجهـا أولاً . لا حريـة مع الطغـاة ـ

ولكنها القادرة المتمكنة ، طاغية لها نزوات مجنون ، وروح طفل متصلب ، وهي الآن عاجزة عن أن تفهم ، إن زوجها كان منذ قريب شديد التعلق بها وحدها ، ولكنه يتحرك الآن . فما العمل ؟؟ لعل الأفضل أن تمنحه وهم الحرية ، ومع ذلك فإن عليها أن تصارحه أن من واجبه أن ينسى حريته ، وأن ينكر ذاته وإلا تجهمت له ، ونكلت به ، وحولت بيته إلى جحيم .

ولكن لَمَ تستبد المرأة بزوجها ؟ أي دافع يدفعها إلى سلوك هذا الطريق ، إنها تدربه على أن يتخلى عن حريته كي يهون عليه رق الأبوة ويُقبل على العبودية عبودية الأسرة ، ومتى أصبحت أماً نزلت بدورها عن كامل كبريائها وضربت أروع الأمثلة في التضحية وإنكار الذات ، فإذا أدرك الرجل هذه التضحية وقابلها بما تستحق ، ظهر الانتصار وفازت المرأة نفسها أسعد النساء ...

وتطل المأساة برأسها :

فاجعة حياتها : إذا غدت الزوجة أماً انتقل حبها لزوجها

إلى التولع بالولد ، ويبدأ عذابها لأنها لا تستطيع أن تقبل بفكرة فتور الحب بينهما ، فتخشى أن تفقد حبه في حين أنها أصبحت أحوج ما تكون إليه . لكن التعلق غير الحب ، والزوج يحس بهذا فيثور ويتمرد[١] وقد يتوق إلى التحرر والحياة خارج البيت ، وهنا تفزع الأم وتحاول أن تنعش الحب القديم ، وتوقظه فتتخبط بين واجب الزوجة وحقوق الأمومة ، بين حب الرجل والولع بالولد ، ومع ذلك فهي مضطرة أن تؤدي وتظل تؤدي أمانتها المقدسة وحدها[٢] حارسةً للنوع وحاملة للحياة وخادمة أمينة للسلالة البشرية ، أي شقاء يضارع شقاءها ، وأي عذاب يقاس بعذابها وهي تعلم حق العلم أن من واجبها أن تبقى أماً وزوجةً في آن واحد ، أي مربية ومحبة وحبيبة بآن واحد .

نشيد الأم : انظروا أيها الناس إلي ، إنني أحمل العالم كله بين يدي ، ما أخفه وما أثقله ، ما أجملهُ وما أبدعه ، لقد عجنت

(١) لأنه في ديار الغرب لا يعرف الإخلاص وكف البصر الذي أمر به الله .

(٢) لأنها في الغرب أقرب من زوجها إلى الإخلاص والعفة .

الخميرة في أحشائي ورويتها بدمي ومزجتها بـدموعي ، ونفخت فيها بكلمـة الله المودعـة في سري[1] وإذا بي وبنعمـة الله أرفع بين يـدي إنسـانـاً يمـلأ العين والقلب والحيـاة . انظروا إلي إنني أم ، أحمل الدنيا بين يدي ، أحمل الإنسان جملة العالم وملك الحيـاة ، هو ملك ولكن عليه أن يظل طوع بناني ، ألست أنا التي قلدتـه صـولجـانـه وأجلستـه على العرش ، ألست أنـا التي علمتــه كيف يحكم ؟.. أو كيف يصبح الرجل ؟؟.. وأنـا مع ذلـك اضطر إلى أن أطيعه وأبقى سيدته إلى الأبد ، وأن أكون خـادمتـه وأمَتَـه . لقد صغتُ تاجـه من لؤلؤ دموعي ... ألا فـاحنوا رؤوسكم لـه ، لولدي .

الخريف :

عالم الكهولة

تنقضي الأيام وتتوارى السنون بشكل مـذهل ... وفي ذات صباح تستفيق الأم من سباتها وتنفض عنها غبـار الزمن وتحـدق

(١) هكذا كانت تقول المرأة قبل الحداثة .

في المرأة فيهلع قلبها ، وتتمزق مشاعرها ، لا بد أن يتوقف الزمن ، لابد أن يعود إذ بدأ يولي . لكن المرأة تشعر أن عليها ألا تستسلم ، وإلا فكيف غدت وكيف كانت ؟ إنها لا تفهم كيف كان مثال الفتنة ونموذج الجمال الآسر يصبح الآن باهتاً فاتراً ؟..

وتحس بالحاجة إلى الأصبغة وأدوات الحضارة ، وبريق الثياب ، ولا مجال للتردد .

لقد ظهرت المأساة بأجلى ما تكون[١] :

إن عليها أن تقبل بأنها على قدر ما كانت تصعد وتعلو ، فإن عليها أن تقبل بالهبوط ، إن الخريف يهبط بالمنحدر نفسه الذي كان يصعد الصيف والربيع عليه .

وأضف إلى كل هذا هول الصدمة ، ورُهاب السقوط .

---

(١) هذه مشاعر الأم الغربية وخلافاً لهذه المشاعر تتعاظم مشاعر التقوى في بلادنا فتنمي المرأة علاقتها بربها في الكهولة .

(المؤلف)

والمرأة في الكهولة أتعس مخلوق على الأرض . هي ما تنسى الفتنة التي كانت تحياها ، والجمال الذي كان يملأ صباها ولكن أين الفتنة الآن وأين الجمال ؟؟..

لقد علّمها المجتمع الفاجر كيف تكون فاتنة ، طلبوا منها أن تكون جميلة أخاذة قبل كل شي ، أقاموا للجمال صنماً يُعبد ، أضفوا على الفتنة والإغراء هالات من الذهب ، وسلّطوا عليها أضواء الغرور ، وانحنوا لتمثال الفتنة يتعبدون ... لكن ما بالهم اليوم ؟ ما بالهم يتنكرون ويبتسمون لبعضهم بسمات الاستهانة ؟.. كيف ولماذا بعد أن كانت معبودة تطرد الآن من الهيكل ، هيكل الجمال حيث كانت فيه معبودة . اليوم يقولون لها الفضيلة وتقول لهم الفتنة ، ويقهقهون من الفتنة التي توارت ولم يبق منها إلا الذكريات ، ذكريات بقيت في الخريف من صور الربيع الذي فات ..

إنها لا تصدق لماذا يحدثونها عن الفضيلة ، وقد طالما عبدوا فيها الفتنة[١] ، فلا تكاد تتزين وتُسرف في الزينة حتى ينفر

(١) هذه بداية المأساة في المرأة الغربية .

منها الجميع . إن كل شيء يفر منها الوجوه تُعرض عنها ، العيون تتغامز كلما لمحتها ، الصبايا الغريرات يهزأن بها ، والشبان لا يقتربون منها .

إنها لا تنسى الماضي المفعم بالحرارة والضياء لماذا لا يحسون بماضيها ويضطرونها إلى الحياة في حاضر بارد ومستقبل قاتم فترتعد وتطوف في ذهنها أحلام ... بل كوابيس مفعمة بالغرائز والإغراءات ، وقد تحاول أن تستعيد ذكريات الربيع أو فترات الصيف فيتلقفها بعض المستهترين في ليلةٍ لا يعقبها إصباح ، ويتوارى عشاق الأمس .

نشيد الكهولة : أين أنتم ياأصحاب ، أين أنتم ، كان زهر الشباب يسطع في عيونكم ، كان عزم الشباب يتفجر في محياكم ... من دمائكم الحمراء كان نهر جمالي ، من عصارة قواكم كان غذاء قلبي ومن نظراتكم المفتونة كانت حرارة عمري ... ولكنْ أين ولماذا توليتم ياأصحاب(١) ؟...

---

(١) هنا تترسخ مأساة المرأة هناك .

الأرض تدور بي ، وخيالكم ما يزال يلازمني .. ها أنا أصيح ولكن أين من يسمـع ويجيب . إن الحسرة تصعقني كما تنصب الصواعق على الشجرة العالية فتقصفها وتلقي بها .

أنا ألتهب وأطلب الرحمة يا غلاظ النفوس ، حوّلوا أنظاركم إلي ولو للحظات اقتربوا مني ولا تخشوا شيئاً ولكن أين أنتم .

الشتاء :

عالم الشيخوخة

الكـلام هنـا لا يجـدي ، وخيرٌ لي ألا أذكر شيئـاً ، أو أرى أحـداً ، إنهم كاذبـون ، لا أحـد يهتم بي الآن حتى الـذين ربيتهم وأنشأتهم لا أحد من حولي ... وشاؤوا لي ومـا شئت أن أكون في منزل العجائز ... أناس بلا قلوب يخدمون هيكلي بالدراهم .

وفي أشد الأوقات حاجة إلى الناس والأقرباء ليس من أحد حولي وفي يوم واحد من السنة يذكرني بعضهم ... إنـه عيـد الأم كما يقولون وألجأ إلى القلم بيدٍ تهتز وترتجف وأخط .

نشيـد الظلام : الظلام يغمرني والخيبـة السوداء تحفر هـوة سحيقـة أمـامي ، أذنـاي أصيبتـا بـالصم ، وعينـاي لا تجرؤ على مجابهة النور ، رأسي يدور على الدوام ...

إنني أتوكأ على عصا وأمشي الهوينا على ثلاث ، ويُخيل إلي كأني أدب على أربع . الظـلام يملأ حيـاتي ، كيف آلفـه وأقبـل به ... ويتحدث المؤمنون عن النور .

نشيد الفناء : أين هي الشمس ؟.. أين هي الشمس لم أعد أطلب من حـولي إلاحرارة الشمس ، كان جسمي مرجـلاً يغلي فأصبح بارداً كالرخام وإذا أشفق علي مَن حولي بدت لي شفقتهم طعنات سكين .

وإذا اشتد الظلام على الوجود لم يعد ينفع الكائن الفاني إلا بالأمل ... وأين الأمل ؟؟..

هذه هي نظرة (ماري فونتان) ومثلهـا كثير من الغربيين إلى مراحـل عمر المرأة .. وقـد تنطبـق هـذه النظرة مـع نظرة شعراء الغزل إليها ..

لكن المرأة في ظل ودعم مجتمعنا المؤمن المتماسك تبقى المرأة القادرة الجميلة الواثقة من نفسها في كل هذه المراحل ... حيث يزداد عطاؤها في سن الكهولة ، ويزداد دعمها بتأييد أبنائها وإدارتها لأسرتها الغنية المعطاءة ، وحيث تجد المكانة والاحترام لدى أبنائها وأحفادها في سن الشيخوخة ، وتبقى لها الكلمة والتقدير في نفوس الجميع ، ولا تزال فكرة إبعادها إلى دور الشيخوخة تنال الأخذ والرد ؛ لأن التئام الأسرة ووفاء الأبناء هو القرار المسيطر على معظم الأسر عندنا ..

هذا وقد نسيت هذه المؤلفة جمال الروح وجمال الحكمة والمنطق الذي تصل إليه المرأة ليطغى على قوة جمال الجسم الذي كانت تملكه في أيام الصبا ، وأن كل مرحلة من مراحل العمر لها جمالها وعطاؤها ... وحتى مرحلة الفناء التي تسميها هذه المؤلفة قد تكون عذبة شفافة مليئة بالإيمان لإنسانٍ أمضى حياته في خدمة الأسرة والمجتمع ، وفي طاعة المولى واحترام وتقديس أوامره ... فتأتي مرحلة النهاية في راحة نفسية وإيمان عميق يحسد عليه الإنسان رجلاً كان أم امرأة .

صفحات سوداء
في واقع المرأة الغربية وصحتها النفسية

تعذيب المرأة :

تمهيد : بدلاً من السكينة القائمة على المودة والرحمة التي شاءها الله تعالى لعباده ، يتفجر العدوان والعنف في المساكن . وتنال الزوجات الكثير من سوء التعامل الرهيب إلى درجة تحول البيوت إلى جحيم أو ما يفوق الجحيم .

ويلاحظ هذا في دنيا الغربيين ، وفي أمريكا بوجه خاص نسوقه كي نعرف إنعام الله تعالى علينا ونشكره الشكر اللائق .

وقد يُشاهد العنف تجاه المرأة في بلادنا إلا أن الفروق واضحة ـ كما سنرى ـ في مدى العنف ونوعيته ومداراته .

يتجلى العنف في أنماط السلوك الهادف إلى تعزيز سيطرة

الأزواج على الزوجات[١] في مختلف المستويات الجنسية والاجتماعية والنفسية وذلك باتباع الأذى وممارسة الضرب والتعذيب بمختلف أشكاله الجسدية والمعنوية .

وقد قام الباحثون في أمريكا بدراسة هذا الموضوع فتوصلوا بعد التحليل إلى جملة أسباب تؤدي إلى هذه النتائج السيئة وأهمها يدور حول :

- الخبرات النفسية والاجتماعية للأزواج والزوجات في إطار ذكريات الطفولة .
- تعاطي المخدرات والخمرة بوجه خاص .
- بمصاحبة الجنس في مختلف أطواره وصوره .

يلاحظ في كثير من الأحيان أن العنف الذي تتلقاه الزوجات يبدأ بأسباب تافهة بين الزوجين ، فيكون مجرد كلام وما يتبعه من تعليق ، قد يتضمن شيئاً من الاستخفاف

(١) يذكر شتراوس أن ٥٠٪ ـ إلى ٦٠٪ من الأسر تظهر فيها ظواهر العنف في أمريكا .

والسخرية ثم ينتقل إلى التعريض بالآخر وبشخصيته أو مواقفه وموضعه الاجتماعي !!..

فيشتعل الانفعال الذي يتلوه الرد فيُفضي الانفعال إلى انفعال مضاد . وترتفع الأصوات وتتفاقم الأمور بسرعة بالغة .

وهنا تختلف مواقف الأزواج والزوجات ، ويتنوع المجال الإدراكي بين الذين يضبطون أنفسهم والذين تسيطر عليهم الانفعالات .

● أما المؤمن الملتزم الذي أحسن تكوينه فيذكر قوله تعالى :

﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغُ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾ [الإسراء : ٥٣/١٧] .

فما رأيت للشيطان أذية أبلغ من خلق أسباب النكد والصراع داخل الأسر مثل هذه الأذية .

● أما الإنسان الذي لا يعلم بهذا القول أو هذه الآية ، أو يعلمه ولا يلتزم به فإنه ينساق دون أن يتوقع أو يشعر كيف يمكن أن تتطور الأمور أو تتوجه . إذ يشتد وجيب الكلمات ويتعاظم فتتحول إلى لكمات ، وإذا بالضرب يتلوه ضرب تتلقاه الزوجات في غالب الأحيان وحدهن مقابل ضربة منها واحدة أو اثنتين .

قام الباحث النفسي (E. Parker) ـ وهو أمريكي ـ بدراسة حالات كثيرة في بلاده وقع فيها العنف على الزوجات ، فذكر ٦٨٪ من نساء المقابلات أنهن قد شهدن في طفولتهن هذا النوع من العدوان الفظ ، تلقته أمهاتهن من قِبَل آبائهن ، ولاحظ علماء آخرون ما يؤكد هذه الناحية في طفولة الزوجات والأزواج .

وهكذا تكون الخبرات السابقة والذكريات القديمة التي ترسبت في لا شعور الأطراف ، باعثاً على إثارة العنف وممارسته .

عامل الخمر : أكد باحثون مثل (Bergman برغمان

وWalker) عامل الخمرة في تعذيب الزوجات من قبل الأزواج ، ولاحظوا وجود معاملات ارتباط بليغة وقوية بين الخمرة وتعذيب الزوجات تصل إلى + ٠,٨٩ .

وأكد العلماء أن كلا الطرفين الزوجات والأزواج يعتبر الخمرة مبرراً لتعذيب النساء !!.

وتقبل الشرطة هناك هذا المبرر (لقد كنت لا أدري ماذا أفعل) هكذا يقول المعذّبون وتذكره المضروبات فيقبل منه التبرير بالخمرة !..

عامل الجنس : يذكر الباحثون أن الرجل يقع تحت سيطرة سلوك جنسي يفضي إلى استخدام القوة الجسدية ، أو التهديد باستخدامها ، فيتم الأمر بشكل اغتصاب . وقد أجريت إحصاءات حول الاغتصاب في الأسر الأمريكية ، فأشارت سجلات الشرطة التي طالعها الباحثون هناك إلى إهمال مواقف الأزواج وعدم الاهتمام به . ويظهر أن الشرطة لا تعير اهتماماً يُذكر لهذا على اعتبار أن الشرطة لا ترغب بالتدخل في خصوصيات الأسر ـ على الرغم من شكاوي الزوجات الحادة أو

ما نسميه في الفكر الإسلامي عموم البلوى ـ ويبدو أن عدم التدخل يرجع إلى اعتبار الجنس في الأسرة يقتضي سلوكاً من هذا النوع الرهيب ، وأنه دليل على الرجولة !!.. مرحى للرجولة .

ويذكرنا هذا بالتقاليد الإسلامية العريقة التي تحول دون أوضاع كهذه :

ـ فشرّع الإسلام المداعبة والملاطفة تسبق الصلات هذه . روى الشيخان عن جابر أنه تزوج ثيباً فقال له رسول الله ﷺ « تزوجت يا جابر ؟... قال نعم قال أبكراً أم ثيباً ؟؟.. قال بل ثيباً ، قال : « فهلاً بكراً تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك » صلى الله عليك يا رسول الله وأجزل لك ما تستحقه عند الله .

ـ روى أبو منصور والديلمي في سنة الفردوس من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقعن أحدكم على امرأته ، كما تقع البهيمة ؟... وليكن بينهما رسول ، قيل وما الرسول يا نبي

الله ؟ قال القبلة والكلام العذب » . وفي حديث آخر يوصي النبي ﷺ أن يجعل المؤمن سبيلاً إلى مبتغاه قالوا وما السبيل ؟.. قال الدعابة والقبلة والتلطف .

ـ ولئلا يكون تمنع الزوجة عاملاً من عوامل التعامل الفظ . يروي الترمذي عن النبي ﷺ قوله : « إذا دعا الرجل زوجته لحاجته ، فلتأته وإن كانت على التنور » وقوله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبت أن تجيء فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » . متفق عليه .

صفات الزوج المعتدي (دراسة علمية) :

جمع الكثير من الباحثين ملاحظات تدور حول صفات الأزواج المعتدين . فشاهد (إلبو Elbo) أربع صفات سائدة هي السيطرة ـ التذبذب الانفعالي ـ تفريغ التوترات ـ الاندماج والتوحد مع الزوجات .

أما السيطرة : فتظهر لدى الأزواج الذين يعتبرون الزوجة ملكاً للزوج وأنه يفعل بما يملكه ما يشاء !!.. في حين

أوصانا ديننا الحنيف بأن نعتبرها أمانة في عنق الزوج يسأله الله عما فعله بأمانته .

التناقض أو التذبذب الانفعالي : فإن صاحبه يعيش في حياته بمشاعر حادة ومتعارضة ، وهكذا يلقي بظله الفظ على زوجه ، مدعياً أنه يعود بعد الأذى شديد التهذيب ـ ولعله يتصور في سره ـ أنه يتشدد كي تفرح زوجته بتحوله إلى إنسان وديع فيما بعد !!.. فتتوق إليه . ويذكر بعضهم أن بعض الزوجات تثار شهواتهن بفعل الضرب فكأنهن يحتجن إلى التعذيب !..

أما تفريغ التوترات فإن الأمور تجري على أساس صبر الرجل وضبطه نفسه ـ فتتزايد الضغوط في نفسه ، فتحتاج إلى تفريغ ، فيفرّغها بشكل لكمات وأذيات أو كلمات نابية ... أجارنا الله .

أما الاندماج أو التوحد : فتظهر لدى أناس يظنون أن زوجاتهم تشكل الواحدة منهن جزءاً من شخصيته ، فإذا حاولت

الزوجة أن تبدي استقلالها عنه فإن الزوج يستشيط غضباً ، فلا يملك نفسه من أين يدافع عن جزئه الذي لا ينفصل عنه !!..

وإذا عدنا إلى الحق وجدنا أن الطرفين الأزواج والزوجات مسؤولان عن الموضوع ، وأن الزوجة الصالحة ـ كما يوصي الإسلام ـ تدرس وضعها جيداً وتحتاط بالكلمة الطيبة والتعامل الكريم أن تدفع عنها الأذية(١) كما أن على الرجل أن يلتزم بهذا .

ونفيد من هذا كله أن المرأة الأمريكية مسؤولة بدورها ، فهي ليست مجرد ضحية ، وإنما هي شريكة ، وهناك الكثير من النساء اللواتي يتحدثن (أو تتحدث أحوالهن) عن صِلاتهن الخاصة خارج الأسرة أو قبل تكوينها (والعياذ بالله) .

---

(١) وذلك بعد أن تكون قد استعملت التريث وعدم التسرع أثناء الخطوبة في اختيار الزوج والقبول به ـ كما يريد الشرع والتقاليد عندنا .

حول تحرير المرأة

تحليل لكتاب قاسم أمين

تمهيد : لقد أكرم الإسلام المرأة ورفع عنها اللعنة لعنة خطيئة حواء الأساسية ، وانتقالها إلى الأجيال البشرية وأنزلها القرآن الكريم بمنزلة الرجل سواء بسواء من حيث الاعتبار والقيمة فأعلنها صريحة أنها هي والرجل مخلوقان من نفس واحدة . وسعى الإسلام كي يضعها في الموضع اللائق ، فجعل الجنة تحت أقدام الأمهات ، وأعلن أن مَن أكرم النساء فهو الكريم ، ومن أهانهن فهو اللئيم .

وعلى الرغم من المسؤوليات الجسيمة التي تضطلع بها المرأة في بناء الأسرة من الداخل والدور الكبير الذي تلعبه في الحمل بالأجيال خلال التاريخ وفي تربيتها ثم في تقديمها إلى الحياة ، على الرغم من ذلك ، فقد عوملت المرأة بسبب ضعف بنيتها وجسمها مقارنة بالرجل بامتهان واحتقار وبظلم واضح خلال

الأزمنة والأمكنة السابقة قبل الإسلام وفي الظروف السيئة التي ابتلي بها المسلمون وفي بلدان الوطن العربي ، صدف خلال قرون عديدة أن تعرضت بلاد الشام ومصر لاجتياح التتار المغول وقبلها الحروب الصليبية المتكررة فأنهكت معنويات الأمة وقواها الذاتية ، وأصيبت المرأة والرجل ـ في داخل الأسرة وفي خارجها ـ ومُنيت حياتها بتراجع كبير ، فنالت المرأة نصيبها الأكبر من هذه الملمات حيث انصرف الرجل إلى أعماله اليومية ، وظلت المرأة تعاني في داخله وعلى مهل من المصائب والنوائب ، وما تكاد تدفع الأذى إلا وتواجهها أذيات أخرى(١) من الرجال المنهكين والمجتمع الضائع المتهافت .

(١) إن المصائب والنوائب الرهيبة التي نزلت بالمسلمين لو أصابت أمماً أخرى لطحنتها ومزقتها وقضت عليها ، ولكن الله تعالى جلّت مشيئته قد شاء لهذه الأمة أن تظل وتبقى محروسة محفوظة بفضل حفظه كتابه الكريم ، لقد تعهد الله تعالى بأن يحفظ القرآن (الذي نهض بالمسلمين وأقام لهم الكيان المتين بغير حدود من الداخل مهما تعاظمت شرور الخارج) قال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[الحجر : ٩/١٥] فلا عجب ولا غرابة في أن تظل دوحة الإسلام الشامخة مهيأة دوماً لإنقاذ كل شيء وإعادة البناء من جديد على الرغم من تطاول الأزمان وتألب قوى العدوان .

« إنني ما زلتُ أشعر بقيود لا دخل للرجل فيها ، ما زلت المرأة التي تحمل وتلد وتحمل هموم أولادها وبيتها وتُرضي زوجها غير المستقر والذي كان يرزح تحت أثقال المجتمع الديكتاتوري الظالم » .

والمهم أن المرأة المسلمة (التي أصيبت بأفدح المصائب) غدت هي والرجل في أمسّ الحاجة إلى دراسات لإدراك المصائب والمستجدات وإنقاذ الآمال . فظهرت أعمال وكتب قام بها المخلصون من أبناء الأمة ومضوا يستنهضون الهمم ويصلحون الأحوال . وكان قاسم أمين من أوائل مَن واجه مشكلات المرأة وتولى الكشف عنها بجراةٍ وإخلاصٍ ألّف قاسم أمين كتابه « تحرير المرأة » وجعله في مقدمة وخاتمة وأربعة فصول هي تربية المرأة ـ حجاب المرأة ـ المرأة والأمة ثم المرأة والأسرة .

● يقول قاسم أمين في الصفحة ٥٥ من كتابه (تحرير المرأة)[1] : « ربما يتوهم أحدهم أنني أرى رفع الحجاب بالمرة »

(١) إن الأمر الذي لا ريب فيه هو أن قاسم أمين كان جريئاً حين تناول قضية المرأة المسلمة ودعا إلى رفع الظلم والتعسف عنها وردّها إلى المنزلة الكريمة =

لكن الحقيقة غير ذلك ، فإنني لا أزال أدافع عن الحجاب وأعتبره أصلاً من أصول الأدب التي يلزم التمسك بها ، غير أني أطلب أن يكون منطبقاً على ما جاء في الشريعة الإسلامية[١] .

● وفي الصفحة ١١٩ يقول : « جميع المسلمين يعلمون أن طائفة كبيرة من الأحاديث النبوية قد رويت عن المرأتين

= التي وضعها فيها الإسلام .

ولم تعجب هذه الجرأة الكثيرين من الجهلاء والبسطاء وأعداء الإسلام فظهر الاستنكار الشديد على قاسم أمين من قبل فئات أهمها فئتان :

١ ـ فئة الرجال المستغلين الذين يخشون على منزلتهم من التصدع ويرغبون أن تظل المرأة دونهم في كل شيء فيسحقونها ويمتهنون شأنها ويمنعون عنها الميراث وحق الكرامة الذي أقره الشرع الإسلامي .

٢ ـ فئة أعداء الإسلام الذين ندبوا أنفسهم لينالوا من دين الإسلام فصفقوا لقاسم أمين وأظهروه أنه الثائر الذي أتى ليُصلح شرعة الإسلام التي تحتاج إلى إصلاح .

وإنني تجاه هذا كله رأيتُ أنه لا بد من مواجهة الرجل بالأسلوب العلمي والعودة إلى كتبه فقرأتها بإمعان وقلّبتُ وجوه النظر فيها فلم أعثر على ناحية تجعله مارقاً من الدين أو العدو الصريح للإسلام وانتهيت من هذه المواجهة إلى الأمور الآتية .

(١) البحث في كتاب : حجاب المرأة لقاسم أمين ص ٥٥ ـ ٥٦ .

عائشة وأم سلمة » . فهل لأحد الرجال منزلة تداني هذه المنزلة ؟

● ويقول في الصفحة ١٦٥ إن ما يريده من أجل إصلاح المرأة شيئان أو قسمان « قسم يختص بالعادات وطرق التعامل والتربية ، وقسم يدعو أهل النظر في الشريعة الإسلامية إلى مراعاة حاجات الأمة الإسلامية » .

● ويدعو في الصفحة ١٧٣ إلى تكوين جمعيات تعمل على التعاون لتربية البنات والسعي لدى الحكومة لإصدار قوانين تضمن للمرأة حقوقها شريطة ألا تخرج عن الحدود الشرعية (كذا ورد في النص) .

ـ هكذا فإن قاسم أمين يدعو إلى رفع الظلم الذي ألحقه الزمان وتقادمُ الأيام في المجتمع الإسلامي بكل من المرأة والرجل معاً . فعمد ـ بخصوص المرأة ـ إلى إيضاح أمرين اثنين :

١ ـ توعية المجتمع وفتح أبصار النساء والرجال وبصائرهم لإزالة الظلم وذلك بتعليم النساء ، وتعهدهن بالمعارف المختلفة لحفظ مكانتهن .

٢ ـ الاستفادة من اختلاف المذاهب الإسلامية للتفتيش عن أفضل المذاهب وأقدرها على خدمة حاجات الحياة المعاصرة والمستقبلية للمسلمين .

لكن أعداء الإسلام والباحثين المغرضين قد استغلوا جرأة قاسم أمين ودعوته إلى إنصاف المرأة **فحرفوا أقواله وشوهوا** أهدافه ، وأشاعوا أن هذا الرجل قد نادى بتحرير المرأة على الطريقة الغربية ، فتأثر بهذا كثير من البسطاء والجاهلين ، ومضوا يتحدثون عن انحراف هذا الرجل وزندقته في بعض الأحيان ، دون أن يقرؤوا كتبه أو يطالعوا أفكاره فيها أو يسألوه ماذا يريد .

صفحة (أو صفعة) سوداء
في تاريخ المرأة المعاصرة

سيمون دوبوفوار

تمهيد : كثير هنَّ النساء الغربيات اللواتي يقدسن (سيمون دوبوفوار) ويعتبرنها رسولة أو نبيـة (تحرير المرأة المعـاصرة) ، وذلـك بسبب الـدعـايـة الواسعـة لهـا دون أن يعرفن من هي أو يطـالعن كتـابـاتها وأفكارهـا . والـذي يتتبـع حيـاة سيمـون ، ويدرس البيئة الفكرية التي أحاطت بها والوراثـة والتربيـة التي تحدرت إليها من أبيهـا ، يـدرك جيـداً من هي ومـا شـأنهـا على الرغم من المكانـة الكبيرة التي تصنعهـا لهـا جمـاعـات النسـوة في الغرب .

مهما كانت حياة هذه المرأة الفرنسية فإن الشيء الهام هو أن والدها كان ارتيـابيـاً شـديـد التشكـك بـالمعنى الفلسفي أو لنقل

(لا أدرياً) . والذي يتعامل مع الفكر الفلسفي يعلم ماذا تعني (اللاأدرية) إنها تعني الشك بكل شيء واتخاذه مبدأ وأسلوباً في التفكير وهدفاً في الحياة . فهذا هو الشك الفلسفي ، وهو يختلف اختلافاً كبيراً وبيّناً عن الشك العلمي الذي استعمله الإمام الغزالي للوصول إلى الحق أو الفيلسوف ديكارت ، في العصور الحديثة .

الشك العلمي مرحلة تفضي إلى اليقين ، وهو افتراض أو فرضية تحتاج إلى إثبات . ومتى ظهر الإثبات زال الشك العلمي وتحولت الفرضية إلى نظرية علمية تنطوي على قانون تجريبي . وهكذا نجد الشك العلمي مشروعاً ومعقولاً ؛ لأنه ليس شكاً وإنما هو استفهام . هذا هو الشك العلمي وهو يختلف اختلافاً كلياً عن الشك الفلسفي المسمى باللاأدرية . واللاأدرية لا تشك بالتفكير أو بقدرة الإنسان على التفكير السليم فقط ، وإنما تشك بالوجود نفسه ، إن الوجود ـ في نظرها ـ لا يدعو إلى الوثوق بشيء ، فكل شيءحتى المحسوسات يدعو اللاأدري لإنكارها ورفضها .

ثم إن اللاأدرية لا تكتفي بإنكار العقائد والأديان ، بل تقوم على الامتناع أو قبول أي شيء أو أي فكرة أو تصور ، وتعتبر الحياة والوجود في الأصل يبعثان على الارتياب وهكذا ، **فاللاأدرية تعارض في آنٍ واحد العلم (حتى التجريبي) والديانة والعقل والحواس .**

لقد كان (بيرون) شكاكاً بهذا المعنى اللاأدري في اليونان القديمة ، فكان يعلّم تلاميذه الشك بكل شيء وعدم تصديق أي شيء ... وصدف أن هذا المفكر مات يوماً وهو في الطريق ، فلم يأت أحد ـ حتى تلاميذه ـ لنشله ودفن جثمانه ؛ لأن الجميع شكّوا بموته كما علمهم أستاذهم !!. لكن الكلاب التي لا تعرف الشك أتت تنشهه ، وتتخذ من أعضاء جسمه غذاء موثوقاً لبطونها ، فغدا مصيره كمصير أي حيوان يموت في غابة بغير أي شك !..

قال المعلقون : إن هذا المصير نتيجة طبيعية لمن يُنكر الوجود ، والنِعم والْمُنعِم ولا يشق بشيء من آيات الله العظمى المنبثة في الأرض والسماء والشمس والقمر والليل والنهار والنجوم والشجر والدواب ... والناس .

هذا هو الشك الذي كان يتميز به والد سيمون الذي كان في آن واحد بمثابة (المورث والوراثة) (والوسط والبيئة) التي أحاطت بها منذ طفولتها الأولى إلى أن نمت وترعرعت ، وحين نضجت وكبرت أضافت إلى العاملين المذكورين عاملاً فكرياً آخر هو تعرفها على (سارتر) ، الزعيم الوجودي والملحد العظيم الذي ولدت فلسفته في أجواء الحرب العالمية الطاحنة التي لم ترحم أحداً ، وخلّفت من بعدها اهتزازاً لا حد له في العقل والمعقولات واضطراباً في حياة الإنسان ووجوده وأفراده ومجتمعاته .

فقدمت أفكاراً دعمت توجهات سيمون كما يأتي :

● شكّت سيمون بالأنوثة على الرغم من أنها أنثى . وهاجمت ما يسمى بالأنثى الخالدة بصورة خاصة لتقضي عليها لأنها لا تعجبها ، لا الأنوثة ولا الخلود .

● وشكّت بالامتيازات التي أودعها الخالق في المرأة ، فجعل منها كياناً محبوباً آسراً صدرت عنه أجمل المشاعر وأعذب الأحاسيس ، (وأكذب الأكاذيب على حد قولها) .

● شكّت بالرجل الذي كان يجتذب الأنثى بدعوى الحب لتعيش معه فيغرّر بها ويُشغلها بعد ذلك في داره ، فتحيا خادمة له ، طيعة متواضعة وتُقبل بشقائها الحافل نحو ما أسماه الرجل أفراحاً (بالحمل والولادة والإرضاع) وما أطلق عليه اسم الحب والتعلق وراح يجده فملأ حياتها به وشغلها وأثار اهتمامها وأحلامها وأمنياتها وهكذا كان الرجل يضحك ويستهزئ بالمرأة ويرميها بالضعف والهوان خلال التاريخ .

● لم تكتف سيمون بالامتناع عن الزواج وآثرت العزوبية بل إنها أدانت في كتبها الأسرة نفسها واعتبرتها العائق الكبير لتحرير المرأة (فهي لا تريد أن يُرفع الظلم عن النساء باسم تحرير المرأة ، بل كانت تريد أن يُقضى على الأسرة نفسها) في سبيل ما تسميه (المرأة الحرة ..) وبتعبير آخر هي تهاجم العلاقات التي شاءها الله لعباده ﴿ خلقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : ٤٥/٥٣] ورأت أن تلغى الأسرة لتقوم علاقات العشق بدلاً منها ، فجعلت من صلاتها (بسارتر) نموذجاً للصلات الجنسية العظيمة !... فما أعظم هذا النموذج .

● وهكذا جهلت سيمون أو تجاهلت حلاوة اللقاء بين الطرفين ، والحق أنها لم تختبر في يوم من الأيام أفراح الخطوبة والزفاف ولا ابتهاج الأم بصغارها والتمتع بمناغاتهم ونموهم ، ولم تدر شيئاً عن القلق الذي يساور الأمهات إذا مرض أحد أطفالها ، ولا الابتهال إلى الله أن يحفظ المريض ويشفيه كما لم تجرب بنفسها السرور البالغ بشفائه ولا شكر الله تعالى على رحمته وعظيم نعمه (بالصغير إذا كبر) (والمسافر إذا عاد) (والمريض إذا تعافى)[1] ... والزوج الذي أتاح لها هؤلاء الأولاد بمشيئته تعالى .

المزيد من أفكارها :

● ليس الجنين إلا قطعة من اللحم منغِصةً للأمهات وليس لها أي معنى ، فالجنين يحمل مفتاح العبودية .

---

(١) وهكذا رفضت سيمون مثل هذه المعاني القائمة على الأمومة ، نظراً لعدم وجود هذه المعاني عند الحيوانات . فما سمعنا بكلبة أو هرة أو ذئبة تملك مثل هذه المعاني .

● كانت المرأة قد تكوَّنت كإنسان قبل أن تتكون أنوثتها ، أو تكون أنثى ، فالأنوثة عَرَض وليست الجوهر .

● إذا قيل : « إن الزواج يؤكد أهمية المرأة ويقرر مستقبلها » فإن سيمون ترفض هذا القول ، وترى أن الزواج يؤكد عبودية المرأة وخضوعها للرجل .

● وتقول سيمون : إذا شئنا أن نفهم أنوثة الأنثى وما تنطوي عليه من خصائص جاذبة فإن علينا أن نرفض علم الحياة ، ونستبدل به علم الاجتماع ، فالظواهر الاجتماعية تكشف عن ألاعيب الرجل .

● تبدأ أوهام الأنوثة الخالدة انطلاقاً من احترام البنت وهي طفلة رجولة أبيها وتصديقها أن الأبوة تقوم على الشجاعة والبطولة[١] والرجولة .

---

(١) وتؤكد سيمون بهذا الكلام استخفافها حتى بأبيها الذي زرع فيها اللاأدرية ، فخضعت له دون أن تحترمه أدنى احترام لأنها لا تقدر اللاأدرية التي آمنت بها .

● إن إنجاب الأطفال لا يرجع إلى المرأة وحدها بل إلى اشتراك الرجل والمرأة معاً فعلى الرجال أن يقوموا بتغذية الصغار وتنظيفهم و ... مهما كانوا بعيدين عن المرأة أو قريبين منها .

مناقشة :

١ ـ إن إنكار (سيمون دوبوفوار) دور علم الحياة في تشكيل الأنوثة ، هذا الإنكار غير علمي ، فالعلم لا يُؤكَّد ولا يُنفى بجرة قلم تبعاً للشهوات . لقد شاهدنا في كتابنا هذا(١) الذي بين يديك أن نفسية الإنسان (بما فيها نفسية المرأة والطفل) لا تقوم ولا تبنى على الفراغ بل تقوم وتنهض على أسس عضوية (أي جسدية يحددها علماء الحياة) وأسس اجتماعية في آنٍ واحد . أما إذا أرادت سيمون أن تنكر علم الحياة ، (من أجل تأكيد أفكارها الخاصة الأنوثة والرجولة) ، فإنها بهذا الإنكار تقدم تحدياً غير علمي أو موقفاً تحكمياً أشبه بمواقف الأطفال والبدائيين والديكتاتوريين ، وتذكّرنا ديكتاتوريتها هذه بما كان قد صنعه (كاراكلاّ) قيصر روما ، حين عيَّن

(١) راجع صفحة (٢٨) من هذا الكتاب .

حصانه رئيساً لوزرائه !! فوضعه في ساحة بالبلد ثم هدد الناس وتوعد كل المواطنين الرومان ، أن ينحنوا احتراماً لهذا الحصان الذي عُيِّن بموجب قرار ملكي يفيد أن الحصان يمثل إرادة القيصر التي تُفرض على الرغم من جميع علماء اللغة (من النحو والصرف) كما قال !!. وعلى الرغم من معرفة أن (إن الحصان لا ينطق) .

٢ ـ إنها تنسى وقائع لا يمكن نسيانها مثل الحمل والولادة والرضاع . فهذه الوظائف هي من صميم عمل الأم ، فهل تريد سيمون من الرجل أن يشارك في هذه الوظائف زوجته ؟؟. وهل يملك الرجل الإمكانات التي تسعفه لأداء الوظائف هذه مشاركةً للمرأة ؟ إن علماء الحياة يؤكدون أن المرأة إذ تحمل وتضع مواليدها فإنها تكتمل وتكتسب النضج في تكوينها ، فهذا ما يقوله العلم والواقع .

٣ ـ لعل سيمون تجهل أو تتجاهل أن الأم تكوّن مع الجنين وحدة عضوية بل ونفسية[١] أكدها العلم بالتنظير مؤخراً .

(١) يراجع ما ورد في صفحة (٤٥) من هذا الكتاب .

٤ ـ وأن إنكار سيمون هذه الوحدة يجعلها لا تدرك كيف تتكون عواطف الأمومة ، فتشكك بها ، لمجرد عدم الإدراك .

٥ ـ أما إنكارها العواطف الكائنة بين (الآباء والأمهات) و (الأبناء) فيجعلها غريبة عن إدراك أعظم العواطف الإنسانية ، فكأن سيمون تكشف بهذا عن ميولها الحيوانية المعاكسة للإنسانية .

٦ ـ أما ماتدعيه « أن تكوين الأنثى في بطن الأم يأتي في وقت متأخر » ، فهذا كلام ظن تخالفه مشاهدات الأجنة بفضل التنظير .

٧ ـ أما إنكارها تفرد الأم بعواطفها تجاه الصغار ، فيؤدي ضمنياً إلى أن الأبوة والأمومة متساويتان بنظرها وإذا لاحظنا أن الأم تملك القدرة والشغف بمولودها منذ ولادته ، فتسهر على خدمته وتقلق ولا تنام من خشيتها على صحته ، إذا لاحظنا هذا فهمنا ماتقوله الحكمة الصينية : « مهما كنت غنياً وقادراً على أن تدفع من الذهب والفضة فلن تجد أو تعثر بالمجان ودون

أي ثمن ، ما يماثل ما تقدمه المرأة لطفلها وتجود به من أجله » .

٨ ـ ونحن نرى مع النقاد الكثيرين ، أن عزوبية سيمون جعلتها لا تدري شيئاً عن أفراح الخطوبة ورعشات الزفاف (الذي أوصى الرسول ﷺ بأن يُشهر ويُضرب من أجله بالدُف) . ولم تجرب ما تقوله المرأة المسلمة « سبحان الله الذي يجعل المرأة تُقبل على زوجها بُعيد العقد وتتفتح عواطفها تجاه الزوج إذ تتعرف عليه في لحظات وهي لم تشاهده إلا سريعاً كما قالت إحدى الفتيات » .

٩ ـ لقد كانت سيمون تسعى (كما يسعى كل يهودي) إلى تقطيع أوصال البشر فلا تبالي بها بل تؤكد صراع الأجيال بين الأبناء والآباء والأمهات ، ولا تدعو إلى احترام العواطف والميول التي بثها الله تعالى بين الجنسين ، كما جعل في نفوس الأمهات روابط لا تقدَّر بثمن تجاه أولادها .

١٠ ـ ويُفهم من فلسفة سيمون أنها تؤكد صراع الأجيال ونكران الأبناء فضل الآباء .

١١ ـ يذكر الذين تتبعوا حياة (سيمون دوبوفوار) أنها أحست بإحساسات مجنونة في كهولتها ليكون لها طفل ولو بالتبني ، ولهذا أخذت تتحدث عواطفها ما يناقض أقوالها التي ذكرتها في كتابها (الجنس الآخر) ، وقد قالت للكاتب الأمريكي (نيلسون الجرين) ، أنها تتلهف في كهولتها أن يعود إليها (سارتر) فتصبح عبدةً ، تكنس وتطبخ وتنظف الصحون من أجله وتطيعه كما تفعل الأمَة تجاه الرجل في بلاد العرب . وهكذا عاشت أواخر أيامها وحيدة تعاني من العزلة والشعور بالفراغ وتفاهة الحياة .

بقي أن نعلم أن كتاب سيمون دوبوفوار (الجنس الآخر) الذي لخصناه وحللناه ، يُعد (إنجيل المرأة) وتحتفظ كل مجموعة نسائية في الغرب بنسخة منه . وفي وسع أي إنسان أن يطالع هذا الإنجيل ويطلع على أفكاره[١] .

---

(١) مع شديد الاعتذار لعدم ورود مراجع هذا البحث ، وقد اعتمدت على ما كتبه ودرّسه أستاذنا الكبير (زكريا إبراهيم) أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة في مجلة العربي بالعدد (١٧٣) نيسان ١٩٧٣ والذي أظهر فيه بعناية كبيرة : =

. . . .

= حياة (سيمون دوبوفوار) وكتبها ومواقفها . ويذكر هو كتبها الهامة : (المثقفون) وهو عبارة عن رواية تقوم على اللاأدرية في موضوع العذرية وفي تقديس اللذات . نالت به جائزة غونكور اليهودية عام (١٩٥٤ م) .
وكتابها (الضيفة) الذي يعبر عن تصورات سيمون وتفكيرها عام (١٩٤٣ م) . وحول مذكرات (سيمون) وكتابها (سارتر والحياة وأنا) عشيقها الكبير وحول (بريجيت باردو) الممثلة المشهورة والتي كانت الأولى بين الممثلات اللاتي سعين إلى سلب عقول الرجال . وغير ذلك من الكتب وحول اشتراكها في تحرير (الأزمنة الحديثة) وقد كانت أول من بشر « بالحداثة » ومجّدها .

« المؤلف »

عمل المرأة

« عندهم وعندنا »

لا يلزم الإسلام المرأة بأن تعمل كي تعيش ؛ ولا يلزمها بالإنفاق . مهما كانت غنية . إنها حرة ذات شخصية حقوقية ومالية . تعمل ما تشاء بمالها تتصرف به دون أي إلزام أو إكراه من أحد فتظل المرأة تحيا في شرع الله وتنفق في حدود مشيئتها وكرامتها .

وفي الغرب بدأت المرأة تعمل في المعامل الحربية خلال الحرب العالمية الثانية . فاكتسبت شخصيتها لأول مرة ، وجعلها الكسب تشعر بذاتها . بعد أن كانت هي وما تملكه بيد ذويها وزوجها وكان الزوج ينال منها كل مالها منذ عقد الزواج بل حتى اسمها .

لكنها حين بدأت تعمل أخذت تمارس إرادتها ... فانتقلت

إلى المعامل المدنية وأحست بأهميتها فتضاعفت ساعات عملها ، وبالتالي تضاعف زمن ابتعادها عن الأسرة . ومضت تألف أن تعيش بعيداً عن البيت . فتفككت الأسرة ، وانحلت أواصر العائلات . وفيما كان الصغار ينعمون في ظل أمهاتهم وآبائهم ، فقد اضطروا إلى الحياة مع التقدم الحضاري خارج الأسر ورافق كل ذلك تعاظم نسب الطلاق ، وتواري الرجل والمرأة كل عن الآخر .

فانتقلت جموع الأطفال من الحياة المنزلية ، واحتوتهم أنظمة التربية الجماعية في الملاجئ ودور اللقطاء التي تقوم على التنظيم بدلاً عن الحنان وفرض التعاليم بدلاً من المودة وتوضحت المساوئ الحضارية والمعنوية الناجمة عن كل ذلك ، فأخذ علماء الاجتماع هناك يشكون من تزايد حالات الجنوح والجريمة والانتحار . كما راح علماء النفس يشكون من تفاقم المساوئ في مجالات الصحة النفسية وسيطرة الكآبة وأمراض النفس والاضطرابات العقلية هذا هو الوجه الاجتماعي والنفسي الذي رافق عمل المرأة في ديار الغرب .

عمل المرأة في الشرق الإسلامي :

كانت المرأة الريفية في بلادنا منذ قديم الزمان وحتى الآن تعمل بنشاط ، ولكنها لا تكتفي بدعم الأسرة ، بل إنها كثيراً ما كانت تبز الرجل في مجهودها وصبرها .

وفي داخل المدن نشطت الفتيات إثر جلاء الفرنسيين عن سورية في الإقبال على العلم فشغلت أمكنة وافرة في مجالي التعليم في المدارس والتمريض وارتقت الكثيرات إلى الطب وأقبلت على العمل طبيبات وممرضات ومعلمات . والذي يهمنا هنا ويستحق التنويه أن المرأة في بلادنا لم تقم بأي تضحية بقيمها واعتبارها ، ولم تستهتر أو تتنصل من الاهتمام بالبيت والأسرة أو الأطفال ، بل ظلت تقيم الاحترام للتقاليد الأسرية ، فلم تُقبل على عمل إلا بعد أن تضمن لزوجها وأولادها ما يحتاجون إليه ، وساعدها في هذا الامتيازُ (الذي يميز أسرنا ويمكن ملاحظته دوماً) ، فتقوم القريبات والجارات أحياناً بتأمين متطلبات التربية والتغذية للأطفال والأسرة تحقيقاً لمبدأ التماسك الأسري .

الحجاب

كتبت طالبة في الصف التاسع الإعدادي بدمشق تقول (في الإيشارب) :

أنا أعلم أن هذه القماشة ليست هي العفة ولا هي دلالة على العفة وإنما هي مجرد قطعة من القماش . ومع هذا فهي ذات شأن يقبل الوزن والمشاهدة والمحاورة النفسية والاجتماعية .

محاورة :

أولاً ـ إنها تمنع رؤية الجمال من بعيد أو توقعه .

ثانياً ـ إنها تخفف من المفاتن الظاهرة التي لا ينبغي أن تُنفق بلا ثمن ، (والتي تتبارى النسوة في تقديمها) . إن قطعة القماش تُعلن أنني مؤمنة متميزة .. وضعتُهُ بكامل حريتي وهذا هو امتيازي . إنه القناعة وهو يجمع بين التراث والمعاصرة[1] .

---

(١) هناك شبهُ إجماع بين عامة المسلمين في الشرق العربي (سورية ومصر =

كما يجمع بين الشخصية المحترمة والبساطة ، وفي دنيا اختلطت فيها الأمور وتداخل الخير مع الشر يساعدني كي أبني شخصيتي ، ويجعل الدنيا تقول : إن الأنوثة العظيمة الطاهرة لم تتوار أو تذوب في بلادنا كما توارت هناك .. وهي تشعر ذوي النفوس المريضة من الشبان الجاهلين أنهم لا يجدون ضالتهم عندي .

ثالثاً ـ منذ أن تعلن الفتاة المؤمنة صراحة أنها ليست في موضع الهوان فإنها تكسب نصف المعركة رأساً . ويعينها الوعيُ على كسب النصف الثاني ... وأنا أرى أن هذه القماشة تؤلف بديلاً مشرقاً للبرقع الأسود الذي يُهدّد بالإبادة .

رابعاً ـ أما الشاب الذي اعتاد أن يخدع نفسه ويخدعهن

= وبلدان البحر المتوسط وما يليه) على القبول (بالإيشارب) بديلاً عن البرقع الأسود الذي كان يُفرض على المرأة والذي يعزل المرأة عزلاً تاماً عن الحياة والمجتمع ، ويحول دون تعلُم الأنثى ودخولها الجامعة وعملها في التعليم والتمريض وأي عمل شريف يحمي ملكية المرأة التي شرعها الإسلام . وأقترح دراسة (الإيشارب) من قبل علماء المسلمين وإبداء آرائهم . فالأمر جدّ ولا بد من إنقاذ الحجاب المهدد بالإبادة كلياً .

بقوله : « أنتِ أبدع فتاة شاهدتُها » وقد قالها ويقولها للكثيرات ، هذا الشاب يجعلني أتذكر أن للشيطان بين الذكر والأنثى مهمة مزدوجة :

١ ـ فهو يشحذ لسان الفتى ليقدم ما يشبه السحر وما هو بسحر .

٢ ـ ويجعل أذني الفتاة تتفتح لاستقبال الكذب بانبهار .

إن تلك القماشة تكشف هاتين المهمتين وتعصمني منهما ، فلا هو يحسن النطق معي ولا أنا بالبسيطة التي يطربها السحر الكاذب إنني في مقابل هذا أعلم ما أريد وما لا أريد ، ولن يقترب مني إلا الجدير ...

ويظل همي الجوهري أن أتمثل وأتشبه بـ ﴿ قاصرات الطرف ﴾ [الصافات : ٣٧/٤٨] فما أروع وأبدع الفتاة تملك الطَّرْف القاصر ، إنه يجعلها في الواقع أجمل امرأة وأوفرها سحراً وامتثالاً لشرع الله ، وما أظن أن في قولي هذا أي مبالغة .

خامساً ـ تلعب هذه القماشة دور السور أمام القصر المشيد .

إن البيوت تُبنى لتتجمع إلى بعضها ، ولكن القصر يُحاط بالسور فيبدو بيتاً فريداً متميزاً . إن القصر بغير السور بيت مثل بقية البيوت أما السور فله وظائف وما أبدعها .

ـ إنه يدفع باللصوص إلى الحساب (حساب التلصص في الدخول والخروج) قبل أي حركة يتحركونها .

ـ ويجعل سكان القصر يعيشون في طمأنينة .

ـ وهو يصنع المهابة للقصر فيجعله فخماً أصيلاً .

وليس هذا بسرٍ لأن كل فتاة تستطيع أن تحيط نفسها بسور المهابة حين تتسلح بقطعة القماش هذه .

سادساً ـ وبعد هذا وذاك فإن القماشة هذه تقدم خدمات جليلة في البلاد غير المسلمة ، فهو ليس هناك أداة صيانة وحسب ، بل هو تعبير قوي مجلجل يقول : « إن الإسلام وصل إلى هنا » .

حول قوامة الرجال

ليست القوامة تحكماً غير معقول ، وإنما هو ضرورة مشروطة . يقول الله تعالى في سورة النساء ﴿ ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ﴾ [النساء : ٣٢/٤] وبعد آيتين يقول عز وجل ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا .. ﴾ [النساء : ٣٤/٤] .

جاء في تفسير الفخر الرازي[1] حول تفضيل الرجال على النساء في قوله تعالى : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله .. ﴾ الآية فقال : إنه « حاصل من وجوه كثيرة بعضها صفات حقيقية وبعضها أحكام شرعية .

أما الأحكام الشرعية فليس لنا نحن أكثر من معرفتها وفهمها دون أي نقاش لها أو محاورة .

(١) تفسير الفخر الرازي ٨٤/٥ .

أما ما يسميه صفات حقيقية فإنه يقتضي منا وقفة .. مشروعة . لقد صنف الرازي هذه الصفات في نوعين :

١ ـ صفات تتعلق بالقدرة .

٢ ـ وصفات تتعلق بالعقل والعلوم ، ويفصل ذلك بقوله لا شك أن قدرة الرجال على الأعمال الشاقة أشد وأكمل .

● فهنا يحق لنا أن نسأل هل يكفي أن يكون فلان أقوى من فلان أو أشد كي يكون الأقوى هو الأقوم والقوّام على الأضعف ؟.. بالطبع لا . فقد نرى الكثير من الأشرار أقوى من الأخيار (من رجال العلم والدين أو الأخلاق) وقد يجمع الشريرون قواهم بإحكام وإتقان ، ولكننا نقول ومهما كانوا أقوى فإنهم لا يصلحون للقوامة لهذا السبب .

● أما ما يتعلق بالعقل والعلم ، فإن كل التفاسير المعروفة التي تناولت عقل الرجل تراه أرجح من عقل المرأة وذلك قياساً على أن الرجال يرثون ضعف ما ترثه النساء ، ويذكرون هذا دون نص شرعي من القرآن أو السنة . والرأي أن الرجال يرثون

أكثر لا بدعوى أنهم أعقل ، وإنما لأنهم مطالبون بالإنفاق أما الربط بين عقل النساء وميراثها فهو ربط لا يستقيم ما دام أنه لا يوجد نص شرعي يسوّغه ويُحدد فيه القول : « أن عقل الإنسان على قدّ ميراثه » وهنا يجب ألا ننسى أن للمرأة المسلمة كما هو معروف الحق بالتملك دون ما يقيدها أو يشترط عليها وإذا لجأنا إلى الدراسات المستجدة التي تتناول عقل الإنسان إذا كانت موثوقة (رجاله ونسائه) فإننا نُصيب الشيء الكثير والمفيد في هذا الموضوع ذاته . فإن هذه الدراسات تُدرج تحت قوله تعالى ﴿ سنُريهم آياتنا .. ﴾ [فصلت : ٤١/٥٣] .

العقل والتفكير : لعل أفضل قياس للعقل هو التفكير .

وتفكير الإنسان لا يخرج عن كونه : موضوعياً أو شخصياً
كلياً أو جزئياً
إيجابياً أو سلبياً .

فالتفكير الموضوعي يتقيد فيه المرء بالوقائع أما التفكير الشخصي أو الذاتي فإنه يقوم على الأهواء والأوهام وما إليهما من

تصورات وواضح أن الرجال يفكرون مثل النساء في هذه الناحية ويشتركون معهن في الموضوعية والذاتية العلمية دونما خلاف فيما نرى ، بين المتعلمين الخواص .

ويكون التفكير موجباً إذا كان يتناول العلاقات والتصورات تناولاً إيجابياً . ويكون سالباً حين ينفيها . ففي هذه الناحية يقترب تفكير الرجل من تفكير المرأة ويتطابق معه ويكون التفكير كلياً إذا كان يتناول الكليات ، ومثالنا في هذا ما يفكر به الإداريون الناجحون ومديرو الشركات والمفكرون العالميون .. إلخ فجميع هؤلاء قلما يواجهون الجزئيات فإنهم يواجهونها من زوايا كلية . ويكون التفكير جزئياً حين يتناول الأجزاء التفصيلية ، ومثالنا في هذا الخياطون اليدويون وصانعو الثياب ، والبناؤون الذين يحوّلون المصورات والمخططات إلى منازل ، فيعملون خطوة خطوة ، لبنة بعد لبنة وجداراً بعد جدار .

وهكذا فإن تفكير الرجل إداري (من العام إلى الخاص) وتفكير المرأة تنفيذي في معظم أحواله (من الجزئي إلى

الكلي) . وإذا فكر الرجل والمرأة في موضوع واحد ، فإننا نرى كل واحد منهما يدور في فلك خاص ويدور حول رؤية فريدة ، فإذا شرع الاثنان يفكران في موضوع « خدمة الجماعة » مثلاً ، فإن الرجل ينصرف تفكيره المباشر إلى مواجهة أوضاع المجتمع ومؤسساته وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى أما تفكير المرأة فإنه ينصرف مباشرة نحو الأمور الإنسانية . وحاجات الإنسان الغذائية والصحية وفي مواجهة الصعوبات الكبرى نجد مفارقات غير متوقعة ولكنها تؤكد الاختلاف بينهما فحين يصاب الرجل في تجارته مثلاً أو وظيفته فإننا نرى الرجل يُصاب باليأس الكلي فيُصاب بالشلل في جسمه ، أو يتوفى في حين أن زوجته تنظر إلى المصيبة بمنظار أضيق فتفكر تفكيراً أهدأ وتنطلق من جزئيات لا تخطر على بال الرجل فتشرع من الصفر فتنقذ زوجها وتصنع من الحاضر المصاب مستقبلاً أقوى وتعيد إلى زوجها وضعه السابق أو ما يتجاوزه . فهذا يؤكد رؤيتها الجزئية المباشرة الساعية إلى الكل بعد ذلك ولكن هذه الرؤية

ترهق المرأة وتنغص مشاعرها ونادراً ما نعثر على هذا في رؤية الرجل .

الصفات النفسية :

١ ـ وأول ما يعنينا منها الاهتمام والانتباه والتذكر ان اهتمام المرأة في شؤونها وما حولها ينصب على ترتيب الأمور وتنسيق أشكالها ، فيجعلها تنتبه إلى الأمور الجزئية وتتذكر المواعيد بصورة أفضل . إن أول ما يخطر ببال المحامي النصوص الكلية ومقاصد القانون (الاهتمام بالجريمة) وجماع القضية أما ما يخطر ببال المحامية النواحي الإنسانية (الاهتمام بالمجرم) .

٢ ـ وإذا كانت هي تكتسب اللغة قبله هو في الصغر فليس هذا ذا أهمية في بحثنا لأن اللغة تدور في دائرة التعبيرات ولأن الطفل حالما يكبر يحصّل ما فاته وأقصر فيه خلال الصغر وسبقته فيه البنت .

٣ ـ يقترح بعضهم تحديد القوامة بالمشاعر الذاتية للمرأة والرجل يقولون « فإذا شاهدنا المرأة تملك شعوراً أعمق بموضوع

الدين والتذوق الأخلاقي والوجداني ، لكن هذا قاصر على المشاعر لا على الأفعال . فالرجل يملك القدرة على تلبية شؤون الدين والوجدان على الرغم من أن المرأة تملك المشاعر الأعمق . وفي موضوع القوامة يتعاظم شأن العمل أكثر من شأن المشاعر .

٤ ـ يقترح بعضهم تحديد القوامة بقضيتي الإمارة والإدارة فالرجل أقدر على الإمارة وعلى الإدارة .

فالإمارة استجابةً لمطلب رسول الله ﷺ بأن على المسلمين إذا كانوا قد اجتمعوا اثنين أو أكثر ، فإنه يتوجب عليهم أن يؤمروا أحدهم . وواضح أن اختيار الأمير ضرورةٌ إسلامية فائقة القيمة لكل تجمع للمسلمين . فلا يجوز أن تظل الأسرة وجوداً اجتماعياً دون أمير . والمرأة تنجح في إمارة أطفالها أما إمارتها لزوجها ؟؟!! فموضوع آخر والقضية هنا تتطلب إجراء بحث إحصائي لمعرفة « كم من الرجال مَن يقبلون بإمارة زوجاتهم » والمرجح أنهم نادرون .

أما الإدارة فتترجم الإمارة بحسبان أن الإدارة تقوم على

الإشراف وحمل المسؤولية وضبط التصرفات في المواقف . إن الإدارة هي الوجه المقابل للإمارة (إذا شبهناهما بوجهي العملة) .

وتشير الدراسات النفسية إلى الضرورات التي ينبغي أن تتوفر في الإدارة كي تنجح . وتتلخص هذه الضرورات بما يأتي : التوازن العام ، شمول الرؤية ، والحزم وصلابة الرأي .

أ ـ **التوازن** : كثيراً ما يضطرب التوازن في الأسرة فيتغلب الأطفال تارة على أمهم أو يتغلبون على بعضهم ، أو يخضعون لأمهاتهم . وفي غالب الأحيان فإن الرجل أقدر على حفظ التوازن لدرجة أن غياب الرجل (بالسفر أو المرض) يجعل الأسرة تقع في مهب الفوضى والصراع .

ب ـ **شمول الرؤية** : قد لا يكون جميع الرجال قادرين على امتلاك رؤية شاملة . إما لضعف شخصياتهم أو بتأثير ميولهم لجانب دون آخر ومع ذلك فإن الرجل يملك الهيبة الضامنة للشمول في معظم الحالات .

جـ ـ **الحزم وصلابة الرأي** : والحزم يصدر عن الهيبة . وقد لا يكون جميع الرجال حازمين إلا أنهم يظلون القادرين عليه أكثر من النساء ، وإذا شاهدنا الحزم عند المرأة ، فإن هذا الحزم يأتي على حساب الدعة والنعومة ، وهما أساسيتان لتكوين الأنوثة . وفي الحالات التي نجد فيها الحزم راجعاً إلى المرأة فإنها تُظهر خضوعاً للرجل إما بدافع ضعفه هو أو سيطرتها كزوجته ، وفي كلا الحالتين شذوذ واضح يدعو إلى الشفقة أحياناً والمرأة على وجه العموم لا ترتاح إلى مثل هذا الرجل وإنما هي ترتاح إلى الرجل الحازم ذي الرأي الثابت والصريح .

نتيجة وخاتمة

ونخلص من الدراسات السابقة إلى بعض الملاحظات التي نوجزها فيما يلي :

١ ـ يذهب الاجتهاد عندي إلى أن العوامل النفسية والعقلية والاجتماعية تجعل الرجل في مصافّ الفارس[1] . وتجعل المرأة في مصاف الحارس . (فهي الحارسة على صحة الأسرة ، وترتيب البيت ونظافته) بما فيها الرجل .

٢ ـ والرأي عندي أن وظيفتي الفارس والحارس متكاملتان ، ولا غنى ولا مناص منهما للبشر والأسرة بوجه خاص .

٣ ـ ليست القوامة تعني أن الرجال هم المسيطرون والآمرون والناهون الذين لا يسألون عما يفعلون فالقوامة ليست

---

(١) والفارس هو الكسّاب الوهاب والآمر الإداري .

تحكماً وإنما هي ضرورة : ضرورة دينيـة يقبل بهـا العقل القـديم والحديث معاً مهما تقـادم أو استحـدث . كما أنهـا ليست مرتبطـة بجنس الذكورة أو الأنوثة ، بل إن الجنسين كُوّنا بـأمر الله لإقرار شرع الله ، فهما ملحقان .

نتيجة تاريخية : لقد منع التفـاهم بين الزوجين إلى ضبـط قيم الأسرة ، وهـذه القيم حـالت دون إسراف المرأة المسلمـة في الزينة شأن النساء في الأمم الأخرى لأنها تدرك سيادتها في المجتمع والأسرة وتعرف مكانتهـا التي تظل مسـاويـة في الاعتبـار لمكانـة الرجل .

١ ـ إنهـا لم تسرف إسراف الإسرائيليـات اللاتي كنَّ يتـأنَّقن بالخلاخيل والأساور وأواني الطيب والتيجان والخلع .

٢ ـ ويقول التـاريخ : إنهـا لم تسرف إسراف المرأة المصريـة القديـمة في استعمال الشعر المستعـار الـذي جعلتـه هـذه المرأة من القـديم كثيفـاً سميكاً مضمخـاً بـالطيب معقـوداً في أشرطـة محـلاة باللآلىء .

٣ ـ كما كانت في نجوة من الإسراف بالتزين الذي اشتهرت به المرأة الرومانية ، حيث أثار إسرافها (كاتو) الروماني الذي عمل على سن قانون يحد من ملكيتها ويمنعها عن المغالاة في الزينة .

وقد استطاعت المرأة العربية المسلمة أن تجمع في شخصيتها بين ربة البيت وأم الأولاد وشراكة الرجل والجهاد والوجود الاجتماعي اليقظ . وتتجلى أهم ظواهر هذا الوجود الاجتماعي بأمور ونواحي كثيرة أهمها :

مشاركتها الرجل في الجهاد أثناء الحروب .

إدراكها وشخصيتها الفكرية أثناء السلم والحرب .

أولاً ـ آثناء الحروب :

يروي التاريخ قصص عظيمات عربيات مسلمات نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر :

أ ـ ما فعلته ذات النطاقين « أسماء بنت أبي بكر

الصديق » حيث جعلت من نفسها الفدائية الأولى بين النساء والرجال المسلمين ، وذلك حين قامت بدور الفدائية الأولى (في أحلك ساعة من ساعات الصديقين وهما في الغار ، رسول الله ﷺ وأبيها الصديق ، ومضت تتحين الفرص لمراقبة تحركاتها خلال الهجرة فتعرضت لخطر شديد ، ومقتل محقق من رجال قريش الذين كانوا يراقبون الغار ، يحيطون به وأي إنسان يقترب منه ، مدججين بالسلاح وسيذكر التاريخ أيضاً قالتها وهي في سن الشيخوخة لولدها عبد الله بن الزبير الذي صلبه الحجاج وأبقاه زماناً معلقاً على الخشب ، فصبرت صبراً لا مثيل له وقالت : « أما آن لهذا الفارس أن يترجل » وكان الحجاج قد أقسم ألا ينزله من مكانه حتى تأتي أمه أسماء بنفسها تطلب إنزاله فما فعلت بل قالت : « إن من تصبر على فقد ولدها حياً لصابرة على فقد جثته وهو ميت » .

وسنذكر بالفخر الخنساء الشاعرة المخضرمة التي عاشت في الجاهلية ثم أسلمت وحسُن إسلامها ، والشيء العظيم في الخنساء أنها حين فقدت أخاها صخراً في الجاهلية بكت وأبكت كل من

يتلو أشعارها ، ولكنها بعد الإسلام وتذوق طعم الإيمان وفهم معنى الشهادة أرسلت أبناءها بكامل حريتها أرسلتهم إلى الجهاد فاستشهدوا الواحد تلو الآخر . ولما أتاها نبأ شهادتهم قالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » ، حدث هذا على الرغم من أن فداحة الثكلى بأولادها أعظم من إصابة الأخت بإخوتها !.. فما أعظم الإيمان .

ب ـ (رفيدة) صاحبة الخيمة المشهورة باسمها في صدر الإسلام و (كعيبة بنت سعد الأسلمية) صاحبة الخيمة التي أقامتها في المسجد عالجت فيها المرضى وداوت الجرحى (ومن بينهم سعد بن معاذ عقب إصابته في غزوة الخندق) .

جـ ـ وإلى جانب ذلك كانت المرأة تقوم بتشجيع الرجال وحثهم على الثبات والصبر في الحرب كما أسهمت في حمل السلاح وقيادة بعض المعارك والقتال إلى جانب الرجال .

د ـ فكانت منهن (السيدة الحارثية) التي سارعت إلى حمل

لواء مواجهة المشركين في غزوة أحد وقد قال فيها حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب

هـ ـ السيدتان : (الربيع بنت معوذ الأنصاري) التي كان لها مواقف حربية جريئة (وخولة بنت الأزور) التي نالت إعجاب الفاتح البطل خالد بن الوليد وتقديره .

و ـ ونخص بالذكر السيدة (نسيبة بنت كعب المازنية) التي اشتهرت باسم (أم عمارة) والتي جرحت في غزوة أحد باثني عشر جرحاً ، فقامت مع زوجها وابنيها بالدفاع عن رسول الله ﷺ خير دفاع وخاصة عندما هزم المسلمون في هذه الغزوة بسبب مخالفتهم تعليمات النبي .

وقد برعت نسيبة في إدارة معركة الدفاع حول الرسول ، فقال لها رسول الله متسائلاً : « من تطيق ماتطيقين يا أم عمارة » ؟ وحينما شاهدها تضرب ساق قاتل ابنها ثم تجهز عليه ، قال لها

النبي : « الحمد لله الذي أظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك ثأرك بعينيك » .

وفي حروب الردة بعد وفاة الرسول وانتقاله إلى الرفيق الأعلى شاركت أم عمارة في موقعة اليمامة وأصابها ما أصابها من الجراح .

ز ـ والسيدة (صفية بنت عبد المطلب) التي تجرأت على قتل يهودي وتجريده من السلاح بعد أن تخلى حسان بن ثابت عن ذلك .

ح ـ والسيدة أم سليم بنت ملحان التي أبدت من الشجاعة والجرأة الفائقة في غزوة هوازن ففاقت بشجاعتها زوجها (أبا طلحة) الذي شارك رسول الله ﷺ وأشار بالإعجاب بشجاعة زوجته أم سليم .

ط ـ ومن بين هذه النسوة تذكر (غزالة) التي خرجت مع زوجها علي عبد الملك بن مروان في إمارة الحجاج بن يوسف الثقفي بالعراق ، فكانت تقدم لزوجها النصيحة والمشورة ،

وتقاتل إلى جانبه على رأس مجموعة من الرجال ، حتى إن الحجاج نفسه تولى أمامها في بعض المواقع فعيره بعضهم بقوله :

أسد عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صغير الصافر
هلاّ برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

ومن الطريف أن نذكر أنها لما قُتل زوجها شبيب انتقلت إلى مكان آخر فصعدت المنبر تخطب في الرجال ، فقال فيها خزيم بن فاتك الأسدي :

أقامت غزالة سيف الضراب لأهل العراقين حولا محيطا
سرت للعراقين في جيشها فلاقى العراقان منها أطيطا[1]

(١) الأطيط صوت الإبل التي تعاني من ثقل أحمالها .
لقد أوردنا الأمثلة عن بطولات المرأة في صدر الإسلام لأغراض كثيرة أهمها :
١ ـ أن نقرأ تاريخنا قراءة واعية متأنية .
٢ ـ أن نقدّر جيداً الجهود العظيمة الفائقة التي بذلها أجدادنا حتى أحرزوا الانتصارات وأقاموا الحضارة الكبرى ، فهذه الانتصارات ـ وإن كانت قد تمت وأنجزت في زمن وجيز محدود ، لكنها لم تتحقق إلا ببطولات كالمعجزات ، وصبر طويل ومرير .
=

ثانياً ـ إدراكها وشخصيتها الفكرية :

وتظهر هذه الشخصية خير ما تظهر في :

أ ـ السيدة فاطمة بنت الخطاب التي سبقت أخاها عمر بن الخطاب نفسه إلى الإسلام وواجهته مواجهة جريئة ، حينما اعتدى على زوجها ، ولطمها عمر على وجهها ، ولم تسمح له أن يمس صحيفة القرآن ، إلا بعد أن يتطهر ويُسلم .

ب ـ والسيدة النابهة التي جابهت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو في قمة مجده حينما شرع بالحد من المهور التي يقدمها الرجال إلى النساء لدى خطوبتهن ، فأفهمته وهو على المنبر قائلة له : « ليس ذلك لك يا ابن الخطاب » وأضافت « ألم تقرأ قوله تعالى في كتاب الله ﴿ وإن آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ [النساء : ٢٠/٤] فوافقها عمر الخليفة وهو

= ٣ ـ وأن هذه البطولات لم يقم بها الرجال وحدهم بل شاركتهم نساؤهم فيها .

٤ ـ هذا إذا كنا نتصور أننا جديرون بالانتماء إلى أولئك العظام والعظيمات فنكون أبناءهم وبناتهم .

يقول : أمير أخطأ وامرأة أصابت ، وحتى المرأة أفقه منك يا عمر .. » .

جـ ـ والسيدة هند بنت عتبة التي بايعت رسول الله ﷺ ، ومضت تحاوره بشجاعة نادرة وصراحة فائقة .

د ـ والسيدة أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية التي خاطبت الرسول فقالت « إني رسول مَن ورائي من جماعة النساء يقلن بقولي وعلى مثل رأيي ... » فقال النبي لأصحابه من حوله : « هل سمعتم مقال امرأة هي أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ » فقالوا : لا يا رسول الله . وواضح هنا أن رسول الله ﷺ يُصر بكلامه هذا على احترام النسوة وتقديرهن ، وتنمية الوعي والإدراك فيهن .

هـ ـ السيدة فاطمة بنت مر الخثعمية والسيدة أم حماد بن زيد بن أيوب وكلتاها قد أسهمتا في نشر الكتابة حتى إن ولد الثانية لم يتعلم الكتابة بعد استشهاد أبيه إلا من أمه ، وبفضل تعليم أمه له غدا من أكتب الناس . وبالمناسبة فقد تعلمت

السيدة حفصة أم المؤمنين وزوجة الرسول ﷺ الكتابة من السيدة الشّفاء بنت عبد الله القرشية العدوية .

ثالثاً ـ اضطلاع المرأة بأعمال اقتصادية وإلى جانب قيام المرأة بمسؤولياتها في تربية أولادها وتهذيبهم وتزيين بيتها ، فقد كانت تقوم بأعمال تدر عليها وعلى أسرتها الخير والبركة فتملأ فراغ وقتها وتبعد عنه أشباح الملل والسأم والاكتئاب مع الفقر . وقد قامت بأعمال كثيرة لعل أهمها :

أ ـ الغزل والنسيج وممن اشتهر بهذه الأعمال السيدة عائشة أم المؤمنين والسيدة أم سلمة التي كان زياد بن السكن وجدها تغزل كلما حضر إليها فسألها أكلما أتيتك وجدت المغزل بين يديك ؟ فأجابته ألم تسمع بقول النبي ﷺ : « نِعم لهو المؤمنة في بيتها المغزل » وقوله : « إن أعظمكن أجراً أطولكن طاقة » .

ب ـ دبغ الجلود واشتهرت فيه كثيرات على الرغم من أنه عمل شاق ، ويبدو أنه من الأعمال الشاقة للمرأة فقيل فيه قول هزلي « حلأت فلانة عن كوعها » والحلء قَطْع اللحم عن الجلد .

جـ ـ صناعة الرماح واشتهرت فيه (ردينة) اليمنية وقد قيل في هذه الصناعة أنها ما تزال تقوم بها نسوة بـ (هجر) .

د ـ الإرضاع ومن أشهرهن فيه : السيدة حليمة السعدية التي أرضعت رسول الله ﷺ في بادية بني سعد . والسيدة ثويبة التي أرضعت حمزة بن عبد المطلب . وقد أقر الإسلام المرأة على الإرضاع رداً على المثل العربي الجاهلي القائل : « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » .

هـ ـ صناعة اللبن تستمده من الإبل ، وقد استوت فيها الموسرات والفقيرات .

و ـ صناعة التزيين والتجميل واشتهرت فيه السيدة آمنة بنت عفان أخت عثمان بن عفان . والسيدة أم رعلة القشيرية التي وفدت على رسول الله وسألته تقول يا رسول الله إني امرأة مقيّنة أقيّن النساء وأزينهن لأزواجهن فهل عليَّ من حوب (أي ذنب وإثم) فأجابها الرسول الكريم : « قينيهن وزيينهن إذا كسدن » .

ز ـ وقد قامت بأعمال الترفيه . يروي أبو داوود في سننه أنه كانت في مكة امرأة كانت تضحك الناس وكانت بالمدينة امرأة أخرى مثلها ، فقدمت الأولى على الثانية فتعرفت إليها ودخلتا على السيدة عائشة أم المؤمنين التي أبدت إعجابها بهما وتلاقيهما وقالت وهي تضحك : قال رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

انتهى الكتاب بعون الله

صدر للمؤلف في دار الفكر

الاستنساخ جدل العلم والدين والأخلاق (بالمشاركة)
قراءة في كتاب الحب والطب والمعجزات
الصحة النفسية للأسرة :

١ ـ للجنين
٢ ـ للمولود والرضيع
٣ ـ لأطفال الحضانة والروضة
٤ ـ لأطفال المدرسة الابتدائية
٥ ـ للمراهقين والشباب
٦ ـ للمرأة والأم

Series of
The Family And The Society

PSYCHOLOGICAL HYGIENICS FOR WOMEN AND MOTHERS

Al-Ṣiḥḥah al-Nafsīyah li-al-Mar'ah wa-al-Umm

'Adnān al-Subay'ī

تحدث الباحثون والكتّاب كثيراً عن المرأة وتناولوها من مجالات مختلفة .. لكنّ هذا الكتاب نغمة جديدة ، لأنه يبحث في المرأة من ميدان الصحة النفسية ..

يقول المؤلف : « ليس من شك في أن معرفة الحياة النفسية للمرأة بإزاء الرجل ، ودراسة الخصائص التي تنهض عليها شخصيتها ، يعد أفضل بداية تستهدف بناء حياة طيبة يتوثق فيها التفاهم ، وتتضح معها وجوه التعاون ، وتنسجم فيها أسباب الخلاف وسوء التفاهم » .

وإذا تناول هذا الموضوع خبير في علم النفس له تاريخ فيه فإننا بإزاء كتاب يجيب عن أسئلة كثيرة في تخصصه .. ويضع النقاط على الحروف .

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-560-X
9 781575 475608